بوزياني الدراجي

الكابوس

(مجموعة قصصية)

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الإهـــداء

ــ إلى الـــذي ضـــحى بالغـــالي والنفيـــس مـــن أجـــلي..

ــ إلى الـــذي ألـــزم نفســـه بالعطـــاء اللامحـــدود لأبنائـــه..

ــ إلى الـــذي قـــدم لي كـــل شـــيء وحـــرم نفســـه..

ــ إلى الأُمِّي الـــذي قـــدس العلـــم؛ وقـــادني بصبـــر وإصـــرار لمنهلـــه العـــذب الشـــافي..

ــ إلى والـــدي العزيـــز بـــوزيـــاني مبـــروك؛ رحمـــــه اللـــــه وســـقى ثـــراه بمـــاء الطهـــارة والرحمـــة..

بوزيـــاني الـــدراجي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تقديـــم

تعتبـــر هـــذه المجموعـــة القصصيـــة ــ الـــتي تحتـــوي عـــلى خمـــس قصـــص ــ هي الثانيـــة في سلســـة مـــا قدمتـــه للطبـــع مـــن القصـــص القصيـــرة الـــتي كتبتهـــا. أمـــا المجموعـــة الأولى فكانـــت بعنـــوان اللعبـــة الخاســـرة؛ تليهـــا هـــذه المجموعـــة؛ وقصصهـــا سبـــق لي أن نشـــرت بعضهـــا خـــلال السنـــوات الخمـــس الأخيـــرة؛ في بعـــض الصحـــف الوطنيـــة؛ منهـــا: صحيفـــة المســـاء، وصحيفـــة صـــوت الأحـــرار.

ولا بـــد ــ هنـــا ــ مـــن الإشـــارة بوضـــوح إلى أنـــني لـــم أكتـــب هـــذه القصـــص بغـــرض المتعـــة فحســـب؛ بـــل كتبتهـــا ــ أيضـــاً ــ في سبيـــل تحقيـــق أهـــداف معينـــة يمكـــن التعبيـــر عنهـــا.. وعليـــه فقـــد وجـــدت أنهـــا تتطلـــب قالبـــاً فنيـــاً لتحقيـــق ذلـــك.. لهـــذا لجـــأت إلى صوغهـــا ضمـــن قالـــب قصـــصي؛ ارتأيـــت منـــه توفيـــر شيء مـــن المتعـــة؛ الـــتي يمكـــن أن تزيـــل مـــا قـــد يحصـــل مـــن ثقـــل وملـــل، وتبعـــث في النفـــس رغبـــة وحبـــاً للقـــراءة..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وبالطبع فهذا الأمر يضعني في خانة الذين ينأون عن النهج الذي يدعو لاعتبار أن الفن يتم من أجل الفن لا غير. كما يضعني هذا ـ أيضاً ـ في كفة من اتهموا بالغائية، وتبني الشعارات التعليمية والخلقية.. وهذا كله لا يهم؛ ما دمت على وعي تام بما أقوم به، وما أكتبه.. ومع هذا فقد وجدت أنه من اللازم الاعتراف بأن استجابة القراء ورضاهم؛ كانتا تشغلني قبل وأثناء الكتابة..

وهذه المجموعة القصصية عنونتها ـ كما يظهر على غلاف الكتاب ـ بعنوان ((الكابوس)).. وهذا العنوان ـ طبعاً ـ هو اسم القصة الأولى. وعليه فلا بد أن القارئ الكريم قد أدرك ـ بسهولة ـ أن القصة الأولى هي الأساس في المجموعة؛ لذا فقد شمل اسمها المجموعة كلها. ومن هنا يتضح أن اختياري لاسم **الكابوس** كعنوان للقصة الرئيسية؛ حدث لكون بقية القصص تحمل في طيها ـ بشكل أو بآخر ـ بعض المعاني والملامح المعهودة للكابوس..

بوزياني الدراجي

الجزائر في: 2002/06/28م

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الكابـــوس

بـــزغ فجـــر يـــوم جديـــد مـــن أيـــام الصيـــف الملتهبـــة عـــلى مدينـــة (تـــل الســـراب) الصحراويـــة.. تلـــك المدينـــة الـــتي ضيعـــت هدوءهـــا، وأضحـــت كغيرهـــا مـــن المـــدن الحديثـــة؛ تفيـــض بالعبـــاد مـــن كل الأجنـــاس البشريـــة، وتختنـــق بالآليـــات والسيـــارات المختلفـــة الأنـــواع والأشكـــال.

لـــم تعـــد مدينـــة (تـــل السراب)كسابـــق عهدهـــا؛ صغيـــرة وهادئـــة؛ إذ زال عنهـــا سحرهـــا، وتـــلاشى سرهـــا الباعـــث عـــلى إثـــارة الشاعريـــة والإلهـــام.. ذلـــك الســـر الـــذي كـــان يكمـــن في أزقتهـــا ودروبهـــا البسيطـــة.. الأزقـــة الـــتي تعكـــس ظـــلالاً لطيفـــة؛ تحـــمي المـــارة مـــن أشعـــة الشمـــس الملتهبـــة.. الشمـــس الـــتي تنفـــث حرارتهـــا بمجـــرد ظهورهـــا صباحـــاً؛ خاصـــة في فصـــل الصيـــف.

تغيـــر حـــال سكـــان هـــذه المدينـــة منـــذ وقـــت ليـــس ببعيـــد؛ فبعـــد أن كانـــوا كالأســـرة الواحـــدة؛ ملتحميـــن، متكاتفيـــن، متعاونيـــن. أصبحـــوا ــ الآن ــ متفرقيـــن؛ لا يعـــرف بعضهـــم بعضـــاً. فبتنـــائي مساكنهـــم، وببعـــد مراكـــز عملهـــم؛ نســـوا صلـــة الرحـــم وحـــق الجـــوار؛ وانشغلـــوا عـــن فـــروض الالتقـــاء وســـنن التلاحـــم. هـــذا بالإضافـــة إلى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الهجـرة الواسعـة الـتي جلبـت سكانـاً جـدداً إلى هـذه المدينـة خاصـة؛ وإلى مـدن الدولـة عامـة.

فالأعـداد الهائلـة مـن البشـر ـ الذيـن يمثلـون تقريبـاً الأجنـاس البشريـة كافـة ـ انصبـوا كالسيـل عـلى دولـة (عيـن الهنـاء) منجذبيـن بفـرص العمـل المتوافـرة بمـدن الدولـة؛ وخاصـة عاصمتهـا مدينـة (تـل السـراب). فأولئـك البشـر المهاجـرون أغـرقـوا السكـان الأصلييـن، وأذابوهـم في اليـم البشـري المتدفـق مـن مشـرق الأرض ومغربهـا.

فالثـروة العظيمـة الـتي منحهـا الله لهـذه الدولـة ـ بعـد اكتشـاف النفـط في ربوعهـا ـ ساعـدت عـلى ازدهـار ونمـو قطاعـات عديـدة فيهـا. أهمهـا: المجـال العمـراني الـذي غـدت ـ بفضلـه ـ مـدن دولـة (عيـن الهنـاء) تضـاهي مـدن أوروبـا وأمريكـا.

غيـر أن الازدهـار المعمـاري هـذا أفـرز سلبيـات كثيـرة في مجتمـع اصطـدم بأنمـاط حياتيـة غريبـة عنـه؛ فلـم يتمكـن مـن مقاومـة شـدة جاذبيتهـا وتأثيرهـا القـوي.. كـل ذلـك أحـدث تغيـرات مصطنعـة في بعـض العـادات والتقاليـد الموروثـة..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فبعد أن كان مواطنو الدولة يمتازون بالنشاط الحثيث، والمثابرة المستمرة على العمل، والسعي وراء الكسب المفيد؛ أصبحوا ضحية الإغراء وأسيري الرغبة في التفنن والبذخ والاسترخاء القاتل؛ مع الاندفاع الجنوني نحو سيل الاستهلاك اللاعقلاني. أما العمل المفيد فقد تولاه جيش من الأجانب؛ يعملون بأجور مغرية..

هذه هي الحال التي أضحى عليها مواطنو دولة (عين الهناء) بما فيهم سكان عاصمتها (تل السراب). غير أن هذا اليوم الذي بزغ فجره على تلك المدينة التائهة؛ حمل في طياته أسراراً ومفاجآت قد تقلب الأوضاع رأساً على عقب.

V

لقد شرع قرص الشمس في الظهور شيئاً فشيئاً، وبدأت الحركة تدب في شوارع المدينة الهائئة. ولكن المارة في شوارعها لم يعد في إمكانهم رؤية قرص الشمس، والتمتع بمشاهدة زحفه نحو قلب السماء؛ مخترقاً خط الأفق الحالم..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لقد انتهى وقت التأمل في الكون وعجائب المخلوقات.. فالعمارات الشاهقة أضحت تحول بينهم وبين تحقيق ذلك. ومع هذا فهم يشعرون بشروق الشمس منذ الوهلة الأولى؛ لأن حرارة أشعتها الوهاجة كافية لأشعارهم، والإعلان عن دنو وقتها..

أما في العمارة الشاهقة التي تبرز من الأرض؛ متصاعدة عالياً ــ في الطرف الشرقي للمدينة ــ مثل نبتة عملاقة بين العشب القصير.. ففي هذه العمارة ــ التي تعود الناس على تسميتها بناطحة السحاب؛ مع أن السحاب نادر الوجود في هذه الربوع ــ وبالتحديد في طابقها العلوي؛ كان سالم بن علي الرافعي حاكم دولة (عين الهناء) واقفاً خلف زجاج النافذة المشبع باللون البني الداكن.. لقد كان يراقب قرص الشمس أثناء بروزه وانعتاقه عن طوق الأفق؛ إذ أخذ شكل الزهرة التي تخترق الأرض وتنمو ببطء ظاهرة للوجود..

لقد صعد قرص الشمس شيئاً فشيئاً، وابتعد عن خط الأفق؛ فأضحى ــ من خلال الزجاج البني ــ يشبه قرصاً من الخبز ــ بلون برتقالي ــ يهرب نحو قلب السماء.. إن حرارة الشمس لا تنفذ عبر

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تلك النوافذ السميكة الفخمة؛ المعززة بالمكيفات الهوائية الفعالة.

لم يكن حاكم الدولة وحده في تلك اللحظات؛ فهو الآن يترأس اجتماعاً هاماً لمجلس وزرائه. لقد شعر ــ فجأة ــ برغبة في قليل من الراحة؛ فمنح نفسه برهة من الوقت للتأمل والتفكير الحر؛ فنهض من مقعده الفخم، واتجه نحو النافذة؛ تاركاً لبصره العنان؛ باحثاً عما يخفيه الأفق وراءه..

لقد دام اجتماع مجلس الوزراء هذا طوال تلك الليلة؛ فالأمر خطير جداً.. لم يسبق للحكومة أن واجهت قضية متأزمة كهذه. وعليه فقد فارق النوم أعينهم. فهم ينتظرون معلومات جديدة؛ قد تخفف من قلقهم وتهون من خوفهم..

تزاحمت الآراء والفرضيات في رأس الحاكم. فهو يبحث عن حل؛ ولكن دون جدوى.. فالأمر ليس بيده؛ فهو بيد الله ولا راد لقضائه.. ثم تساءل بين وبين نفسه:

◄ ماذا ستكون النتيجة لو صح ما يقوله المهندسون..؟ إنها الكارثة بدون شك.. ولكن لننتظر التقرير النهائي الذي سيصلنا في هذا اليوم.. إن الخبراء الذين أتوا منذ يومين من الولايات المتحدة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأمريكية سيحسمون الموضوع بلا ريب.. فهم قادرون.. وهم أكفأ الخبراء العالميين؛ فقرارهم سيكون حتماً نهائياً..

كل هذه الأفكار كانت تدور في خلد سالم ابن علي؛ إنه لم يسترح منذ أسابيع عديدة؛ بسبب الأحداث المحزنة التي عرفتها بلاده. لقد تعرضت دولته منذ شهر إلى هزات أرضية؛ تحدد مركزها بمنطقة مجاورة لحقول النفط.. وكانت الخسائر البشرية والمادية فادحة.

ولما كانت الدولة تتميز بصحة جيدة مادياً؛ فقد ذللت حجم الكارثة؛ بفتح خزائن المال؛ التي فعلت فعل السحر؛ فاندمل الجرح في الحال؛ بتعويض الخسائر المادية، وبمواساة النفوس الحزينة؛ وبدا أن المشاكل كلها قد سويت..

واعتقد الناس ــ كما ظنت الحكومة ــ أن صفحة الكارثة قد طويت نهائياً؛ غير أن أنباء جديدة يبدو أنها توحي بكارثة أعظم وأخطر من الزلزال.. لقد وردت تقارير مستعجلة من حقول النفط تذكر بأن الآبار جفت بفعل الزلازل المجاورة للمنطقة. لقد كان هذا خبر مخيفاً حقاً.. لأنه سيصعب عليهم تحمل نتائجه.. فإذا استطاعت الدولة التغلب على

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

آثار الهزات الأرضية فوق السطح؛ فكيف يمكنها التغلب على آثارها تحت الطبقات الأرضية..؟ فالمال وحده هنا لا يفيد.. وإن أفاد فهو لا يكفي؛ لأنه سينضب دون ضمان موارد إضافية تغذيه..

هذا هو ما يقلق حاكم الدولة ووزراءه. وعليه؛ فهم يشغلون أنفسهم بتقديم تقارير روتينية لا فائدة منها؛ سوى المساعدة على التخفيف من قلقهم، وقتل الوقت الثقيل. أما الحاكم المهموم فقد ظل واقفاً قرب النافذة؛ ينظر ــ من خلالها ــ إلى المنشآت التي شيدها مع أسلافه. إنه ما زال يذكر كيف كانت مدينة (تل السراب) عندما كان صغيراً..

لقد كانت مدينة صغيرة.. مدينة تقليدية بسيطة في كل شيء: في مبانيها.. في شوارعها.. في أسواقها.. وحتى داخل دورها؛ لم يكن السكان يعرفون الرفاهية التي ينعمون بها الآن.. فلا كهرباء، ولا غاز طبيعي، ولا حتى المياه التي تخر من الصنابير؛ إذ كان الماء يجلب بواسطة عدد من السقاة؛ الذين يحملونه في قرب كبيرة، أو ضمن دلوين معلقين على طرفي قصبة من الخيزران الخشن؛ تحمل على الكتف؛ فتقوم بحفظ توازن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الدلويـــن؛ فيبـــدوان ككفـــتي ميـــزان؛ يتدليـــان خلـــف وأمـــام الســـاقي.

أمـــا الإضـــاءة فتتـــم بواسطـــة سُـــرُجٍ تُـــشعـــل بالكيروزيـــن، أو بواسطـــة شمـــوع مختلفـــة الأحجـــام. أمـــا الطبـــخ والتسخيـــن فيتمـــان بواسطـــة الفحـــم الـــذي لـــم تكـــن تخلـــو دار منـــه. والطعـــام لا يمكـــن حفظـــه أكثـــر مـــن ساعـــة أو ساعتيـــن؛ نظـــراً لعـــدم وجـــود ثلاجـــات؛ بحكـــم انعـــدام الكهربـــاء.

هـــذه هي حـــال مـــدن دولـــة (عيـــن الهنـــاء) قبـــل عشـــرات الأعـــوام. أمـــا الآن فقـــد أصبـــح البـــون شاسعـــاً بيـــن اليـــوم والأمـــس.. هـــذه الأفكـــار كلهـــا كانـــت تمـــر في خيـــال سالـــم بـــن عـــلي الرافـــعي كشريـــط سينمـــائي؛ ينشـــط ذاكرتـــه، ويشحـــذ خيالـــه.. فيـــزداد تأملـــه وتتضاعـــف تساؤلاتـــه:

◄ مـــاذا يخـــبئ الغيـــب لهـــذه المدينـــة..؟ ومـــا هـــو مصيرهـــا لـــو نضـــب النفـــط مـــن حقـــول الدولـــة، وغـــارت ثـــروات الأرض في أعماقهـــا..؟ هـــل ستبـــقى هـــذه الحركـــة الاقتصاديـــة النشيطـــة عـــلى مـــا هي عليـــه..؟ لا أظـــن..!! إيـــه..! !

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

◄ لقد أخطأنا في سياستنا التنموية.. نعم أخطأنا.. إن أفضل تنمية وأنجعها هي التنمية البشرية.. فرأس مال الدولة ــ أي دولة كانت ــ هو الإنسان.. الإنسان العامل طبعاً.. فالإنسان بدون عمل كالصخرة الصماء.. ونحن في دولتنا ــ مع الأسف ــ أغرقنا مواطنينا في بحر من السلع المستوردة، والإمكانات المادية الظرفية؛ وشجعناهم على سلوك سبل الراحة والترف؛ فتركوا العمل، وتخلوا عنه للأجانب؛ الذين أوكلوا إليهم شئون معيشتهم، وآفاق مستقبلهم..

◄ فما حاجتهم إلى العمل، وما الذي يحتم عليهم اختيار العناء والمشقة في خوض أمواج العمل المتلاطمة.. فلديهم ما يحتاجون إليه.. فما الداعي للمشقة إذن..؟

◄ ليتني استمعت إلى ذلك الخبير الاقتصادي الكبير الذي زارنا منذ مدة. لقد نصحني ولم أستجب إليه.. إيه..!! اعتقدت ــ آنئذ ــ أنه يحسدنا.. ويتمنى زوال هذه النعمة عنا.. فلم استمع إليه.. إنني أتذكر الآن.. لقد نصحني وطلب مني ترويض الشعب، وتعويده على الكسب بواسطة العمل، وبذل الجهد.. لقد غضبت منه عندما قال لي: أن الكسب السهل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يفسد طباع البشر، ويبعث فيهم روح الاتكال.. نعم غضبت؛ ويا ليتني لم أفعل..

انتبه الحاكم فجأة من دوامة أفكاره وتأملاته؛ وشعر بحاجة ماسة إلي فنجان من القهوة؛ يضبط به تداعيات مخيلته.. فالتفت نحو وزرائه الجالسين على المقاعد الوثيرة؛ خلف الطاولة البيضاوية التي تجمع شملهم؛ وقال:

◄ لعلكم في حاجة إلى قليل من الراحة.. تفضلوا إلى البهو؛ لنتناول قليلاً من القهوة، ونستريح بعض الوقت.

نهض الوزراء المجتمعون؛ واتجهوا مجموعات.. مجموعات صوب البهو؛ عبر الباب الموصل إليه؛ من داخل قاعة الاجتماعات. ولما دخلوا إلى قاعة البهو ــ التي تزخر بالتحف والأثاث الثمين ــ أخذوا أماكنهم في الأرائك الوثيرة؛ التي يكاد الجالس عليها يختفي بين طياتها.. كانوا صامتين؛ كأن على رؤوسهم الطير.. إذ ينتابهم ــ جميعاً ــ قلق شديد..

لم يكن يكسر ذلك الصمت الرهيب سوى طنين فناجين القهوة التي ارتفعت أصواتها على أصوات الجالسين.. لقد فعلت القهوة فعلها.. إذ بثت فيهم الرغبة في النقاش، وساعدتهم على الحديث دون

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تشنـــج واضطـــراب.. فبتســـرب نكهـــة القهـــوة إلى شراييهـــم أمكـــن استدعـــاء مزيـــد مـــن المنبهـــات والمنشطـــات الذهنيـــة.. لـــذا فقـــد بـــدأ دخـــان السجائـــر يتصاعـــد فـــوق الأرائـــك؛ ذلـــك الدخـــان الـــذي حـــاكى شكـــل المداخـــن الصغيـــرة؛ الـــتي تنفـــث دخانهـــا فـــوق سقـــوف الـــدور الريفيـــة..

لقـــد انفـــك القيـــد، وانطلقـــت الشهـــوات مـــن عقالهـــا.. فـــلا مانـــع مـــن التدخيـــن في البهـــو؛ خلافـــاً لقاعـــة الاجتماعـــات؛ الـــتي يمنـــع التدخيـــن فيهـــا.. والآن ــ مـــع لفافـــة تبـــغ، وفنجـــان مـــن القهـــوة ــ يمكـــن لمحركـــات الفكـــر أن تنشـــط..

كـــان سالـــم بـــن عـــلي مطـــرق الـــرأس؛ ينظـــر إلى الأرض المغطـــاة بالطنافـــس الفارسيـــة الثمينـــة.. لقـــد كـــان يفكـــر ــ بـــدون انقطـــاع ــ فيمـــا تخبـــؤه الأيـــام القادمـــة لـــه ولدولتـــه.. وبحركـــة ملفتـــة للنظـــر؛ رفـــع رأســـه، وخاطـــب وزيـــر الاقتصـــاد:

◄ أتذكـــر ذلـــك الخبيـــر الـــذي دعوتـــه منـــذ ثـــلاث سنيـــن، وقدمتـــه إلي؟

◄ نعـــم سيـــدي الحاكـــم؛ أذكـــره.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

◄ لقد كان مصيباً فيما قاله كله.. كأن أفرداً من الجن تخبره بشئون الغيب..

◄ أبداً سيدي الحاكم؛ لا علاقة للجن بهذا.. فهو يبني فرضياته على معطيات علمية؛ يقدرها حق قدرها.

◄ وأنت.. ألست مختصاً..؟ ألم تتحصل على شهادات عليا في الاقتصاد..؟ فما الذي منعك ــ إذن ــ من بناء فرضيات على معطيات علمية؛ كما فعل ذلك الخبير..؟!

◄ أ..أ..أ.. في الحقيقة كنت متفقاً مع الخبير الأجنبي.. وكنت قد توصلت إلى الذي توصل إليه دون عناء..

◄ عجباً..!! كيف وصلنا ــ إذن ــ إلى ما نحن عليه الآن..؟!! وحسبما أذكر؛ لم تتقدم إلي باقتراح، أو رأي شبيه بما قدمه الخبير الأجنبي..

◄ سيدي الحاكم.. إنني أرغب في شرح الحقيقة؛ ولكني لا أريد إغضابكم..

◄ الحقيقة..؟!! عن أي حقيقة تتكلم..؟!! ما هي هذه الحقيقة..؟ تكلم..!!

◄ أ..أ..أ..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

◄ تكلـــم.. اطمئـــن؛ فلـــن أغضـــب..

◄ عندمـــا دعـــوت الخبيـــر المذكـــور إلي بلادنـــا؛ كنـــت أهـــدف إلى إعطـــاء الأفكـــار ــ الـــتي أشتـــرك معـــه في الإيمـــان بهـــا ــ شيئـــاً مـــن المصداقيـــة والقبـــول لديكـــم، ولـــدى المعنييـــن ببلادنـــا. وعليـــه؛ فقـــد نظمـــت لـــه سلسلـــة مـــن المحاضـــرات؛ ألقاهـــا أمـــام المهتميـــن في معاهدنـــا وجامعاتنـــا. كمـــا حرصـــت عـــلى تقديمـــه إلى سيادتكـــم؛ بغـــرض عـــرض آرائـــه الجريئـــة في حضرتكـــم..

وهنـــا؛ بـــدت عـــلى وجـــه سالـــم بـــن عـــلي علامـــات الحيـــرة والغضـــب؛ وصـــاح:

◄ مـــا هـــذا..؟!! مـــاذا تقـــول..؟!! أتهـــذي يـــا رجـــل..؟!! ولـــم كـــل هـــذه التصرفـــات الغريبـــة..؟!! هـــل تستـــدعي منـــك واجباتـــك ــ نحـــو وطنـــك ونحـــو حاكـــم دولتـــك ــ كـــل هـــذه الحركـــات البهلوانيـــة الملتويـــة..؟!! ألـــكي تعـــرض عـــليّ رأيـــاً مـــا؛ تكلـــف نفســـك عنـــاء إحضـــار خبيـــر أجنـــبي..؟! هـــل عجـــزت أنـــت عـــن إقنـــاعي..؟! مـــاذا أسمـــع..؟! شـــيء غريـــب واللـــه..!!

وهنـــا تدخـــل وزيـــر التعليـــم العـــالي؛ قصـــد تخفيـــف حـــدة النقـــاش، وتبديـــد غضـــب الحاكـــم:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

◄ اسمحوا لي سيدي الحاكم.. بالتدخل في الموضوع؛ لأني أعلم بعض جوانبه.. فكل ما قاله زميلي وزير الاقتصاد صحيح.. لقد صارحني بنواياه منذ الوهلة الأولى.. وأراد ــ في مرات عديدة ــ طرح آرائه عليكم؛ ولكنه تردد، وأحجم عن ذلك خوفاً من غضبكم..

◄ غضبي..؟!! ماذا تقول أنت الآخر..؟! ولماذا أغضب..؟ هل أغضب من وزير يطرح رأياً يهدف إلى صلاح دولتي..؟!! هذا تفسير عجيب..!! غير ممكن هذا.. إنني لا أقبل مسوغاً كهذا..

◄ إنني لا أريد أن أسوغ أمراً هو حقيقة يا سيدي.. لقد استعمل زميلي الخبير الأجنبي؛ لكي يضمن إقناعكم.. كما طلب مني أن أرتب له الجو؛ لتقديم سلسلة من المحاضرات في جامعاتنا؛ من طرف ذلك الخبير. فسهلت له مهمته؛ لعلمي بمدى أهمية نشر تلك الأفكار بين علمائنا وأبنائنا..

◄ حتى إذا سلمت بصحة ما تقوله؛ فإني لن أقبل بهذه التصرفات الملتوية..

وهنا تدخل وزير الاقتصاد؛ فسماعه لهذه العبارة المستفزة؛ أنطقه ــ أخيراً ــ بما كان يكتمه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

◄ سيدي الحاكم.. اسمحوا لي أن أكون صريحاً، وأشرح لكم الموضوع بوضوح ..

◄ لسنا ضد الصراحة.. تفضل.

◄ قام خبراؤنا الشباب ــ منذ فترة ــ بدراسات اقتصادية واجتماعية؛ تدخل في سياق الدراسات المستقبلية. فخرجوا بنتيجة تتضمن احتمالات خطيرة على مستقبل اقتصادنا.. وبعد إطلاعي عليها وتقديرها بما هو واجب؛ عرضت الأفكار ــ التي تبلورت في ذهني ــ على زميلي وزير التعليم العالي؛ بحكم مكانته العلمية؛ فأيدني وشجعني على طرح الموضوع أمام سيادتكم. ولما تقدمت إلى السيد رئيس الديوان بالملف الذي أعددناه. وبعد شرح الهدف من طلب المقابلة؛ عارضني، وهول الأمر في عيني؛ بحجة أنك ستغضب من هذه الأفكار المتطرفة، والمدمرة حسب قوله.. لذلك؛ تخليت عن فكرة عرض الموضوع بنفسي؛ خوفاً من رد فعلكم. ثم اهتديت ــ أخيراً ــ إلى فكرة عرضه عليكم بواسطة خبير أجنبي. فاتصلت به ودعوته لزيارة بلادنا. وأنتم تعلمون جيداً ــ بعد ذلك ــ كيف رفضتم فكرته بحدة؛ وقلتم ــ آنئذ ــ إنه مولع بالتشاؤم؛ ويريد منكم استفزاز الشعب.. ببعث

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الاضطـــراب في صفوفـــه. ولمـــا عرفـــت رأيكـــم الرافـــض؛ تخليـــت عـــن الفكـــرة نهائيـــاً..

◄ يا للهـــول..!! مـــا هـــذا..؟! كـــل كلمـــة تقـــال هنـــا تلهـــب الأعصـــاب.. حـــتى رئيـــس الديـــوان لا يصْدقـــني، ويخـــفي عـــني قضايـــا تهمـــني وتهـــم الدولـــة..!!

في هـــذه اللحظـــة يتدخـــل رئيـــس الديـــوان قائـــلاً بانكســـار:

◄ كنـــت يـــا سيـــدي أمنـــع مـــا يمكـــن أن يزعجكـــم.. فالأفكـــار الـــتي عرضهـــا السيـــد وزيـــر الاقتصـــاد بـــدت لي غريبـــة.. كانـــت ستغضبكـــم حتمـــاً.. فـــهي أفكـــار تـــرمي إلى تبـــني سياســـة شبـــه تقشفيـــة.. لـــم تكـــن ضروريـــة في نظـــري.. لذلـــك حذرتـــه مـــن طرحهـــا أمـــام سيادتكـــم.

احمـــر وجـــه سالـــم بـــن عـــلي غضبـــاً؛ ولكنـــه تمالـــك نفســـه.. وصمـــت كاتمـــاً أنفاســـه؛ الـــتي تكـــاد أن تفجـــر خياشيمـــه.. ومـــع هـــذا فقـــد سيطـــر عـــلى غضبـــه.. لإدراكـــه أن هـــذه اللحظـــة ليســـت لحظـــة حســـاب أو عتـــاب؛ إنـــه وقـــت يحتـــاج فيـــه إلى النـــاس كافـــة.. فالمصيبـــة كبيـــرة؛ ويحتـــاج الأمـــر إلى أبنـــاء الوطـــن كلهـــم؛ لـــكي يجـــدوا حـــلاً لهـــذه المعضلـــة.. وعليـــه فقـــد التفـــت مـــرة أخـــرى نحـــو وزيـــر الاقتصـــاد وقـــال:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

◄ لا علينا.. والآن؛ ما هي تقديراتك للمستقبل الاقتصادي؛ لو حدث ــ لا سمح الله ــ ما نكرهه، وجفت الآبار حقاً..؟

◄ لا يمكنني الإجابة بكل بساطة؛ دون دراسة معمقة، ودون معطيات كافية. فحالنا هذه لا يمكن تناولها بعموميات وافتراضات لا سند لها. فالموضوع يتطلب منهجية معينة؛ تقسمه إلى ميادين ضيقة؛ لكي يتسنى تشخيصها؛ ثم إيجاد الحلول..

◄ كيف يكون الأمر؛ في حال تقدير أسوأ الاحتمالات..؟ فالخسارة يمكن تقديرها بملايين الدولارات يومياً.. ألا يمكن تعويض جزء من الخسارة؛ بالبحث عن موارد مالية أخرى..؟

◄ في الوقت الحاضر.. أ..أ.. لا أظن.. فالمسألة ليست سهلة؛ خاصة في الظروف العاجلة..

عندها تدخل وزير الثروة النفطية والمنجمية؛ ووجه كلامه إلى سالم بن علي قائلاً:

◄ حتى إذا جفت الآبار فلن نعدم أملاً آخر في البحث ــ من جديد ــ عن آبار أخرى.. خاصة إذا بحثنا مع الشركات العاملة عندنا في موضوع تكلفة البحث والتنقيب..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

◄ هـذا يتطلـب وقتـاً طويـلاً.. فأنـت تعلـم أن عمليـات البحـث والتنقيـب ليسـت سهلـة.. ومـا قصدتـه بسـؤالي لوزيـر الاقتصـاد هـو إمكانيـة الحصـول عـلى تعويـض سريـع.

◄ يبـدو أن الحـل الـذي قدمـه زميـلي وزيـر الثـروة النفطيـة والمنجميـة بعيـد المنـال.. وهـو بالضبـط كمـا أشرتـم إليـه يا سيـادة الحاكـم.. ثـم إن البحـث والتنقيـب يستدعيـان مصاريـف ماليـة ضخمـة؛ ونحـن لا نعـرف موقـف الشركـات البتروليـة؛ ونجهـل مـدى استعدادهـا لتحمـل المصاريـف. ومـن جهتنـا؛ فنحـن في حاجـة إلى كـل دولار لـكي نواجـه الأزمـة الاقتصاديـة المقبلـة.. كفانـا اللـه شرهـا..

صمـت سالـم بـن عـلي؛ إذ كـان مستغرقـاً في تفكيـر عميـق؛ ثـم رفـع رأسـه قائـلاً:

◄ في هـذه الحـال؛ يمكننـا استثمـار أموالنـا المتواجـدة في البنـوك العالميـة.

◄ إن استعمـال هـذه الأرصـدة أمـر لا مفـر منـه.. ولكنهـا لا تستجيـب إلى احتياجـات الدولـة كلهـا... فـإذا خصصنـا جـزءاً منهـا لاستيـراد المـواد الاستهلاكيـة، وبعـض التجهيـزات الضروريـة؛ فإنـه يستحيـل ــ بعدهـا ــ استعمالهـا في عمليـات البحـث والتنقيـب؛ فهـذه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

العمليات مكلفة للغاية. ولم يبق أمامنا سوى الجانب المتعلق بالشركات الأجنبية؛ ونحن ــ حتى الآن ــ لا نعرف نواياها.

◄ إذن يمكننا ضبط سياسة تقشفية؛ نقلص بها معدل الاستهلاك..

◄ نعم سيدي الحاكم.. ولكن هناك ميادين أخرى غير ميادين السلع الاستهلاكية تتطلب أموالاً باهظة.. فالأجور مثلاً ــ وأنتم تعلمون أن اليد العاملة في بلادنا أجنبية في معظمها ــ تمتص جل ميزانيتنا.. وعلى الرغم من كون جزء من اليد العاملة الأجنبية يشتغل في قطاعات منتجة؛ إلا أن معظمها يرتزق من قطاعات غير منتجة.. كقطاع الخدمات خاصة. وهذه اليد العاملة كلها تحول أجورها إلى عملات صعبة؛ ترسلها إلى أوطانها. وهنا يكمن المأزق.. فلو تركنا الحال هكذا سيتأزم وضعنا الاقتصادي أكثر فأكثر. ولو أدخلنا عليه التعديلات الضرورية؛ ستمس حتماً مصالح الأجراء؛ فيضطرون إلى ترك أعمالهم؛ والعودة إلى بلدانهم..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

◄ لا بد أن يعودوا إلى أوطانهم.. على الأقل سيخففون من حجم الاستهلاك..

◄ حقيقة سيقل معدل الاستهلاك.. ولكن ــ أنتم تعلمون يا سيادة الحاكم ــ أن اليد العاملة الأجنبية هي التي تدير مقود المحرك في بلادنا.. سواء في: التجارة أو الصناعة أو الفلاحة أو البناء أو الصحة؛ وحتى أشغال التنظيف وتنقية المحيط.. هذه القطاعات كلها، ــ وقطاعات أخرى ــ ينشطها أجانب.. ولو تركت فجأة من قبلهم ــ لا سمح الله ــ ستحل الكارثة؛ إذ ستتوقف دواليب الحياة في بلادنا: اقتصادية واجتماعية وثقافية..

◄ إذن فوجود الأجانب لا مفر منه؛ حسب رأيك..؟

◄ نعم.. في الوقت الحاضر على الأقل.. وإذا أردنا التخلص من اليد العاملة الأجنبية؛ فلا يمكن تحقيق ذلك إلا بعد سنوات عديدة؛ وتبعاً لخطة دقيقة وفعالة. فالأمر يتطلب تعويضهم بأبناء شعبنا.. غير أن ذلك يستدعي وقتاً كافياً؛ فالأمر يتطلب إعادة تكيف شامل للمواطنين؛ الأمر الذي يستدعي نشر ثقافة تمكن من إعدادهم نفسياً ومهنياً.. وهذا ما تتناوله الدراسة التي أعددناها في السابق؛ ولم تر النور مع الأسف..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أطــرق الحاكــم برأســه إلى الأرض.. لقــد أحــس بثقــل في دماغــه؛ فتركــه يهــوي إلى الحــد الممكــن.. لقــد شعــر بقناطيــر مــن الهمــوم الــتي كانــت تضغــط عليــه.. فأثقلتــه وأفقدتــه التــوازن..

أخــذ يفكــر ويفكــر ولكنــه عجــز عــن التركيــز.. فالفكــرة كانــت تطاردهــا فكــرة أخــرى.. فكيــف السبيــل إلى إزاحــة هــذا الثقــل عــن رأســه..؟ فالهمــوم هــي الــتي تشــل تفكيــره؛ وتمنــع عنــه التركيــز.. إنــه يسمــع صوتــاً في داخلــه يقــول:

◄ نعــم.. فمــا قالــه وزيــر الاقتصــاد كلــه صحيــح.. كيــف تكــون عاقبــة الأمــور لــو عــاد العمــال الأجانــب إلى أوطانهــم..؟ كيــف تكــون الحــال لــو تركــوا أعمالهــم دون سابــق إنــذار..؟ ستحــل ــ عندئــذ ــ الكارثــة لا سمــح اللــه.. عندهــا سيتوقــف كــل شــيء.. نعــم كــل شــيء في القطاعــات الحيويــة كافــة: الماليــة والتجاريــة والصناعيــة والعمرانيــة والفلاحيــة والصحيــة والثقافيــة وغيرهــا مــن المحركــات الاقتصاديــة والاجتماعيــة..

◄ فعمــارة كهــذه ستغــدو كهيكــل ميــت.. لا كهربــاء فيــه، ولا مــاء، ولا هاتــف، ولا مصاعــد، ولا مكيفــات.. نعــم ثمــة بعــض التقنييــن والمهندسيــن مــن أبنــاء شعبنــا؛ ولكنهــم لا يكفــون حاجاتنــا..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

◄ يا للهول..!! ماذا سيكون مصير مدينة (تل السراب)..؟ ماذا سيحل بعماراتها..؟ وبشوارعها..؟ وبمحلاتها التجارية الفخمة..؟ وكيف تصبح حركة المواصلات بها..؟

◄ إنني أخاف أن يهجرها السكان.. لن يتحملوا العيش بدون ما تعودوا عليه من: مكيفات ومبردات وسيارات.. فالطابع العمراني الحديث للمدينة؛ يجعل من المستحيل العيش فيها بدون وسائل الحياة الحديثة..

◄ ستكون الصورة مفزعة حقاً..!! تلك الصورة التي ستبدو فيها مدينة (تل السراب).. مدينة مهجورة.. خالية من السكان، ومن السيارات.. دورها وشوارعها مهملة.. يا للهول..!! ستبدو كأن قنبلة نيترونية فجرت فيها.. لطفك يا رب..!!

في هذه اللحظة؛ رن في أذنيه صوت رجل يكلمه من خلفه.. لقد أيقظه من حلمه المفزع.. التفت خلفه؛ فإذا بكاتبه الخاص يهمس في أذنه بخبر طالما انتظره بفارغ الصبر؛ ولكنه ليتأكد قال له:

◄ أعد.. لم أسمع ما قلته جيداً.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

◄ وصل كبير الخبراء إلى المطار.. وهو الآن في الطريق إلينا.

◄ آه.. إذن.. هيا بنا إلى قاعة الاجتماعات.

نهض سالم بن علي، وبقي واقفاً مع كاتبه الخاص؛ مفسحاً المجال للوزراء كي يسبقوه إلى القاعة. ولما أصبحوا على مقاعدهم؛ خلف طاولة الاجتماعات البيضاوية؛ دخل وأخذ مكانه متصدراً المجلس؛ حيث شرعوا فوراً في عملهم الروتيني.. وواصل سالم بن علي الاجتماع بقوله:

◄ لنستمر فيما توقفنا عنده.. فليتفضل وزير الصناعة بتقديم عرضه.

واستمر الاجتماع هكذا.. وتوالت العروض والتقارير التي تتناول قطاعات مختلفة؛ مع التعرض لآثار الأزمة إن حدثت.. وبعد ساعة تقريباً دق الهاتف الذي أمام سالم بن علي.. إنه كاتبه الخاص؛ يعلمه بحضور كبير الخبراء؛ وهو ينتظر الإذن بالدخول. فأجابه سالم:

◄ أدخله في الحال.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثـم طلـب مـن المجتمعيـن طي الصفحـة؛ والاستعـداد لمـا سيـأتي.. وهنـا دق البـاب؛ ثـم دخـل موظـف التشريفـات؛ وخلفـه رجـل في العقـد السـادس مـن العمـر؛ فحيـا الحاكـم باللغـة الإنجليزيـة الـتي يجيدهـا جـل الحاضريـن:

◄ تحيـاتي المخلصـة سيـدي الحاكـم.

◄ أهـلاً بكـم.. تفضـل بالجلـوس.. تفضـل عـلى المقعـد المجـاور لمقعـدي..

◄ شكـراً سيـدي الحاكـم.. هـذا كـرم كبيـر منكـم.

◄ أرجـو ألا تكـون الرحلـة قـد أتعبتكـم..

◄ لا.. أبـداً.. إني سعيـد بوجـودي في بلدكـم المضيـاف.

◄ هـل توصلتـم إلى نتيجـة مـا؛ بخصـوص الحقـول..؟

◄ نعـم.. إن الأمـر ليـس كمـا توهـم بعضهـم..

◄ كيـف..؟! ! لـم أفهـم..! !

◄ الآبـار تعرضـت حقيقـة إلى أضـرار كبيـرة؛ مـن جـراء الـزلازل الـتي حدثـت في المناطـق القريبـة مـن منطقـة الحقـول البتروليـة.. لقـد تهـدم أكثرهـا؛ ولكنهـا قابلـة للترميـم.. فمنطقـة الـزلازل لـم تكـن ــ كمـا تعلـم ــ قريبـة بالقـدر الكـافي لإحـداث أضـرار في الحقـول البتروليـة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

◄ والنفـــط.. ألـــم ينـــزح مـــن الآبـــار..؟

◄ أبـــداً.. فالنفـــط بـــاق.. غيـــر أن إعـــادة استخراجـــه تتطلـــب مجهـــودات كبيـــرة، وتستـــدعي مصاريـــف ماليـــة معتبـــرة.

◄ ومـــا هـــو رأي شركـــات البتـــرول..؟ هـــل هـــم مستعـــدون..؟

◄ أعتقـــد ذلـــك.. لقـــد كـــان مندوبهـــم معنـــا.. ويبـــدو أنهـــم عـــلى استعـــداد..

◄ لا علينـــا.. إذا أمكـــن استصـــلاح الآبـــار؛ فالمصاريـــف الماليـــة لا تهـــم.. ولكـــن كيـــف يتـــم استصـــلاح الآبـــار المتضـــررة..؟

انحـــنى الخبيـــر قليـــلاً إلى جانبـــه الأيمـــن؛ ثـــم رفـــع حقيبـــة صغيـــرة؛ كـــان قـــد وضعهـــا عـــلى الأرض عنـــد جلوســـه.. ومـــن داخلهـــا أخـــرج ملفـــاً أنيقـــاً؛ قدمـــه إلى سالـــم بـــن عـــلي وقـــال:

◄ هـــذا تقريـــر كامـــل أعددتـــه مـــع زمـــلائي.. فهـــو يعـــرض الحلـــول كلهـــا؛ بمختلـــف الأعمـــال وكـــل المصاريـــف.. ونحـــن عـــلى استعـــداد، ورهـــن إشارتكـــم..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

◄ باختصـــار.. مـــا هي الأعمـــال الـــتي ستقومـــون بهـــا..؟

◄ أهـــم شـــيء هي الاستشـــارات التقنيـــة.. لأن إعـــادة التنقيـــب، وتنظيـــف الآبـــار ستقـــوم بهـــا شركـــات التنقيـــب العاملـــة في بلادكـــم..

◄ فـــإذا شرعـــت الشركـــات في عملهـــا.. فمـــا هـــو الوقـــت الـــلازم لإتمامـــه..؟

◄ مـــن ثمانيـــة عشـــر شهـــراً إلى سنتيـــن تقريبـــاً..

◄ هـــذا كثيـــر..!

◄ لا يـــا سيـــادة الحاكـــم.. ليـــس كثيـــراً.. فبهـــذه المـــدة تنتـــهي الأعمـــال كلهـــا.. إذ يمكـــن إنجـــاز بعـــض الآبـــار في مـــدة أقـــل ممـــا ذكـــرت.. ولكـــن البقيـــة تبـــقى.. وقـــد تنجـــز بعـــض الآبـــار السهلـــة في حـــدود أيـــام عشـــر فقـــط.. غيـــر أن آبـــاراً أخـــرى تتطلـــب وقتـــاً كبيـــراً لإتمامهـــا..

◄ إذن يمكنكـــم أن تتفضلـــوا إلى مقـــر إقامتكـــم؛ لأخـــذ قســـط مـــن الراحـــة.. وسنـــدرس تقريركـــم اعتبـــاراً مـــن الآن؛ وسنعطيكـــم الجـــواب غـــداً؛ إن شـــاء اللـــه..

◄ حسنـــاً.. طـــاب يومكـــم يـــا سيـــادة الحاكـــم..

نهـــض الخبيـــر، وتقـــدم نحـــو البـــاب؛ برفقـــة موظـــف التشريفـــات؛ الـــذي ظـــل واقفـــاً خلـــف سالـــم بـــن عـــلي طـــوال الحـــوار.. وعندمـــا أقفـــل البـــاب؛ رفـــع سالـــم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ابـن عـلي سماعـة الهاتـف، وطلـب مـن أحدهـم الحضـور؛ فجـاء ـ بعـد برهـة ـ كاتبـه الخـاص؛ فأعطـاه الحاكـم الملـف قائـلاً:

◄ استنسـخ ـ حـالاً ـ نسخـاً تكـفي الحاضريـن جميعـاً.. أسـرع..!

قفـز الكاتـب نحـو البـاب؛ كي ينفـذ مـا أمـره بـه سيـده.. وبعدهـا استـرخى سالـم بـن عـلي الرافـعي عـلى مقعـده؛ ثـم اتكـأ قليـلاً إلى الـوراء بحركـة تـوحي بمـا أصبـح عليـه مـن راحـة بـال، وسعـادة.. ثـم نهـض متجهـاً إلى النافـذة..

تلـك النافـذة الـتي يلجـأ إليهـا كلمـا أحـس بحاجـة إلى التأمـل والتفكيـر واستلهـام الجديـد.. إنهـا كالمحـراب المقـدس.. إنـه طالمـا يشعـر ـ أثنـاء وقوفـه خلفهـا ـ بالأمـان والهنـاء.. كمـا أنـه ـ مـن ورائهـا ـ يحـس بالفـارق الكبيـر بينـه وبيـن مـن يـراه مـن المتجوليـن في الشـوارع.. فـإذا كانـت الشمـس تلفـح وجوههـم؛ فإنهـا ذليلـة.. ذابلـة عبـر نافذتـه المشبعـة باللـون البـني.. وإذا كـان الحـر الشديـد في الخـارج يعصـر أجسـام الخلـق ـ كمـا تعصـر قطعـة النسيـج مـن المـاء ـ فـفي الداخـل؛ خلـف النافـذة جـو لطيـف؛ ينعـش النفـس ويبسطهـا..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

دارت في رأسه ـ هذه المرة ـ أفكار تبهج النفس وتحييها.. نعم لقد زال قلقه بزوال الكابوس.. الكابوس الذي احتل قلبه، وطرد النوم من جفونه منذ أيام.. فقال لنفسه:

◄ الحمد لله.. لقد انزاح عن صدري الكابوس اللعين.. سيستمر الحال كما كان.. ستبقى النشاطات الحيوية سائرة المفعول.. كنت أحمل هموم الناس كافة.. فالناس لا يشعرون بما أعانيه.. إنهم يعيشون حياتهم العادية.. نعم حياتهم التي تعودوا عليها.. فهم لا يعرفون عن الأزمة شيئاً.. ولم يتعرفوا على الكابوس الذي كان جاثماً على صدري..

◄ نعم فعلى الحاكم أن يتحمل كل شيء.. وعليه أن يستقبل الكابوس لوحده.. نعم عليه أن يتحمل ذلك؛ مقابل الاحتماء بهذه النافذة.. فالناس يحترقون بالشمس؛ وأنا أحترق بهموم الحكم وكوابيسه..

وفي هذه اللحظة أحس بصوت كاتبه يتنحنح خلف ظهره؛ فالتفت إليه قائلاً:

◄ هيه.. هل استنسخت الملف..؟

◄ نعم سيدي.. وقد وزعته على السادة الوزراء؛ أما النسخة الأصلية فهي أمام مقعدكم.. على الطاولة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

◄ حسنـــاً.. انصـــرف الآن..

عـــاد سالـــم بـــن عـــلي إلى مقعـــده؛ بحركـــات لاحـــظ مـــن خلالهـــا الحضـــور علامـــات الســـرور باديـــة عليـــه.. لقـــد بـــدت وجهـــه هـــذه المـــرة كمـــا عهدوهـــا.. زال تجهمـــه فجـــأة.. فللنافـــذة مفعـــول سحـــري.. فهـــم يعرفونهـــا، ويعرفـــون عاداتـــه.. فـــلا يقـــف أمامهـــا إلا ساعـــة الجـــد.. وكلمـــا اتجـــه إليهـــا؛ ينتظـــرون منـــه الجديـــد.. ســـاراً كـــان أم محزنـــاً.. لقـــد اتجـــه إليهـــا وفيـــه بقيـــة مـــن الكآبـــة والهمـــوم؛ فعـــاد منهـــا وهـــو طلـــق المُحَيَّـــا مســـرور الخاطـــر.. وبعـــد جلوســـه توجـــه إلى وزرائـــه قائـــلاً:

◄ بســـم اللـــه.. أمامكـــم ملـــف هـــام؛ وعليكـــم بدراســـته خـــلال هـــذا النهـــار؛ عـــلى أن تقدمـــوا عروضكـــم بخصوصـــه في اجتمـــاع الليلـــة.. عـــلى الساعـــة الثامنـــة؛ غيـــر أني ألفـــت انتباهكـــم إلى موقفنـــا الصعـــب؛ الـــذي لا يسمـــح لنـــا بالمنـــاورة في حريـــة..

ثـــم التفـــت نحـــو وزيـــر الثـــروة النفطيـــة والمنجميـــة قائـــلاً:

◄ اتصـــل بمنـــدوبي الشركـــات البتروليـــة.. وقـــل لهـــم أن يأتـــوا غـــداً مســـاء؛ كي نبحـــث الأمـــر معهـــم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

◄ نعـم سيـدي الحاكـم؛ سأتصـل بهـم.

ثـم التفـت ـ بعـد ذلـك ـ إلى وزيـر الاقتصـاد قائـلاً لـه:

◄ ولآن جـاء دورك..

فتجهـم وجـه الوزيـر، وعلتـه غمامـة داكنـة.. لقـد أدهشتـه المفاجـأة.. فـفي الحـال؛ تصـور نهايتـه في الـوزارة.. وقـال لنفسـه:

◄ هـذا هـو ختـام عهـدتي.. إنهـا نهايـة مفجعـة..

غيـر أنـه تمالـك أعصابـه؛ وقـال:

◄ نعـم سيـادة الحاكـم.. فأنـا طـوع أمـرك..

◄ أيـن الدراسـة المستقبليـة الـتي أعددتهـا مـع معاونيـك منـذ مـدة..؟

◄ موجـودة.. يا سيـادة الحاكـم..

◄ أحضرهـا غـداً صباحـاً؛ لـكي أطلـع عليهـا.. لـن أسمـح لهـذا الخطـأ أن يتكـرر أبـداً..! لـن يعـود الكابـوس بسهولـة مـرة أخـرى.. والآن تفضلـوا إلى أعمالكـم؛ فالجلسـة مرفوعـة.. وفقكـم اللـه..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الصَّـدْعُ

لـم يقـاوم (بوزيـد قـدور) رغبتـه فـي الاستلقـاء عـلى الأريكـة القديمـة المثبتـة أمـام جهـاز التلفـاز بغرفـة الجلـوس. لـذا فقـد تـرك لجسمـه المتعـب حريـة السقـوط عـلى تلـك الأريكـة الباليـة؛ فسمـع لهـا صريـراً وأنينـاً؛ احتجاجـاً وألمـاً مـن ثقـل ذلـك الجسـم الساقـط عليهـا؛ إذ كـاد أن يحطمهـا..

لقـد تعـود (قـدور) عـلى تلـك الأريكـة المنهكـة.. لأنـه لا يستسيـغ مجلسـاً في المنـزل غيرهـا.. لـذا فقـد تمـدد بجسمـه الـذي عـانى مـن الإعيـاء والكـد طـوال النهـار.. فهـو لا يـدري ــ في الحقيقـة ــ إن كانـت تلـك الأريكـة قد خصصهـا هـو لنفسـه؛ أم أن عائلتـه هـي الـتي فضلتـه، وخصتـه بهـا.. فكـل مـا يعلمـه أنـه لا يرتـاح إلا لتلـك الأريكـة.. ولا يحلـو لـه مقعـد غيرهـا.. لـذا فهـو مواظـب عـلى إصلاحهـا كلمـا انثلمـت، أو سقطـت إحـدى مكوناتهـا.. فهـو يعلـم أنـه يميـل إلـى الثبـات والسكـون، ويتمسـك بمـا تعـود عليـه.. لهـذا يتشبـث بأريكتـه الـتي يشعـر براحـة عجيبـة؛ عندمـا يتمـدد بجسمـه عليهـا..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إن الانتقال من مكان إلى آخر يزعج (قدور)، ويتعارض مع مزاجه.. كما أن التلون في المظهر يحز في نفسه ويغيظه؛ والتنويع في المأكل والملبس أيضاً يضايقه ويريبه.. وحتى طقوسه التعبدية فلا يسمح بتغيرها، أو تعديلها؛ صائبة كانت أم خاطئة.. ومعاملاته الإنسانية فيها دماثة وليونة ورقة؛ ولكن في حدود رسمت في ذهنه؛ لا يتعداها أبداً، ولا يسمح لغيره بتجاوزها.. ومبادئه السياسية والفلسفية ليست من مبتكراته؛ لقد استمدها من الماضي المزدهر بالعلم والحضارة؛ ذلك الماضي البراق؛ المحصن بالقيم الأخاذة..

لذا فكل الذي يحيط به ويعيش معه يراه بعينيه حداً ثابتاً لا يقبل التغيير والتبديل.. والثوابت لديه ليست قضية معقدة؛ تحتاج إلى التفسير أو الفلسفة.. فالثوابت عنده هي كل الذي يرتاح إليه فؤاده، ويقبله مزاجه، ويصلح أن يكون عقدة متينة لربط الأواصر بينه وبين أسرته، وبينه وبين شعبه..

وهكذا سهل على نفسه إدراك ما تعنيه كلمة ثوابت.. تلك الكلمة التي أصبح السياسيون الجدد يرددونها ــ بدون انقطاع ــ على منابرهم، وفي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حواراتهم المملة.. حتى أنه توهم في بعض المرات أن هذه الكلمة قد ابتكرها أبناء وطنه.. ولكن بعد بحث واستفسارات عديدة؛ اتضح له أنهم اقتبسوها عن غيرهم..

ونظراً لكراهيته للتقليد الأعمى فقد نأى بنفسه عن استعمالها بإفراط؛ حتى وإن كان يلتقي مع معناها ويتشبث بمحتواها.. ومع هذا فهو محتار من الخصومات التي تنشأ بين أبناء شعبه بخصوص كلمة ثوابت.. وطالما سأل نفسه:

◄ ما هو سبب خلافهم حول هذه الكلمة..؟! لماذا ينادي بعضهم بتبنيها؛ بينما يرفضها آخرون..؟! هل هي خطيرة إلى هذه الدرجة..؟!

◄ عجباً أينقسم أبناء شعب واحد حول كلمة تعبر عن أمر يدخل في سياق البديهيات وفي المسلمات..؟! أيغرق الناس ــ هكذا ــ في كوب من الماء..؟!

كانت هذه التساؤلات تدور في ذهنه بين الحين والآخر.. وقد طرحها ــ يوماً ــ في حوار دار بينه وبين صديق له؛ يشتغل في إحدى الصحف. فكان جواب صديقه أن سبب الصراع حول كلمة ثوابت يرجع إلى الخوف.. ولما بدت علامات الاندهاش

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عـلى وجـــه (قـــدور)؛ أضـــاف الصديـــق الصحـــفي موضحـــاً:

◄ نعـم الخـوف.. فالمتشبثـون بالكلمـة يخافـون أن تكسـر الثوابـت وتـزول مـن الوجـود.. وفـي المقابـل يخـاف المعـادون لهـذه الكلمـة مـن بقائهـا وهيمنتهـا..

◄ عجبـاً..! فأنـا لا أفهمـك.. فـإذا كنـت أدرك جيـداً لمـاذا يخـاف الإنسـان مـن فسـاد ثوابتـه وثوابـت أمتـه؛ فـإني ــ بالمقابـل ــ لا أستوعـب كيـف يخـاف إنسـان مـا مـن ثوابتـه..

◄ مـن جهـل شيئـاً عـاداه.. فـالرافضـون لهـا يخافـون مـن قيودهـا، ومـن هيمنتهـا عـلى حياتهـم وسلوكهـم؛ الـذي يميـل إلى التغييـر، وتقليـد الآخريـن.. لـذا فهـم يـرون أن الثوابـت سـوف تكبـل حركتهـم نحـو الأمـام.. بينمـا يعتقـد المتمسكـون بالثوابـت أنهـا عامـل ضبـط لكـل حركـة، ووسيلـة لحفـظ تـوازن الأمـة، وحصانتهـا مـن التشويـه والذوبـان في ثوابـت أخـرى غريبـة؛ يتمسـك بهـا غيرهـم..

استعـاد (قـدور) في مخيلتـه هـذا الحـوار الـذي دار يومـاً مـا بينـه وبيـن صـديقه الصحـفي.. وفـي هـذه اللحظـة قطعـت زوجتـه عليـه سلسلـة أفكـاره؛ حيـن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وضعت طبق الطعام على المائدة الصغيرة الجاثمة أمامه..

تأمل ملياً في تلك المائدة القديمة؛ التي كانت تهتز كالميزان؛ لأبسط لمسة تلامسها.. لقد بقيت في حركة متتالية؛ جيئة وذهاباً؛ عندما وضعت عليها زوجة (قدور) طعام العشاء.. فهي غير ثابتة على وضع واحد.. قوائمها تكاد تتفكك عن إطارها.. إنها ترقص في كل الجهات لأدنى سبب.. ولما لاحظ هذا قال لنفسه:

◄ هذه المائدة لا تؤدي وظيفتها بشكل جيد.. ألا تدخل هذه المائدة في عداد المهزوزين الذين لا يثبتون على قاعدة متينة..؟

◄ لو كانت دعائمها ثابتة بشكل جيد في إطارها لما تعرضت للاهتزاز.. ولما هُددت بالانكسار والسقوط.. إنها مشاغبة ومربكة..

◄ إنها تهتز وتفقد توازنها كلما تناولت لقمة من الطبق..

ولكن ما العمل..؟ فليس في مقدور (قدور) استبدالها، وجلب مائدة أخرى.. إنها أصبحت جزءاً لا يتجزأ من عائلته وممتلكاته.. لا يمكن الاستغناء عنها أبداً.. إنه يعرف ذلك قطعاً.. ولكنه يتجنب

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الخـوض في موضـوع قـد يصـل بـه إلى حـدود الممنـوع والمحظـور..

ولمـا وصلـت بـه مخيلتـه إلى هنـا؛ تذكـر ـ فجـأة ـ كلمـة أخـرى شغـف بهـا هـواة السياسـة كذلـك؛ فبالغـوا في ترديدهـا بابتـذال القـول، وسفسـاف الحديـث؛ حـتى فقـدت بريقهـا ورونقهـا.. إنهـا (الطابـو)؛ أي المحظـور والممنـوع مـن الفعـل والقـول.. وسـأل (قـدور) نفسـه:

◄مـاذا لـو شـط بـِي الهـوى الآن؛ وأحضـرت مـعي زجاجـة مـن الخمـر وشربتهـا مـع الأكـل أمـام أطفـالي..؟ هـل أدخـل بهـذا التصـرف في عـداد الشجعـان مـن دعـاة كسـر الطابوهـات.. أم أصنـف ضمـن المجانيـن؛ أو المنحرفيـن والعصـاة..؟

وهنـا تذكـر طعامـه الـذي كـان أمامـه.. فتنـاول الملعقـة وشـرع في الأكـل.. لقـد بـرد الطعـام.. إنـه نسيـه في دوامـة الأفكـار الـتي ملكـت عليـه كيانـه..

كـان بعـض أولاده جالسيـن معـه في الغرفـة؛ لـم يلاحظـوا عـلى أبيهـم شيئـاً ملفتـاً للنظـر. لقـد تعـودوا عـلى تلـك الحـال منـذ مـدة.. كانـوا منشغليـن ـ بدورهـم ـ في متابعـة مـا كـان يعـرض عـلى شاشـة التلفـاز.. لـذا فهـم لا يلتفتـون إلـى أبيهـم.. فنظراتهـم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كانت مسمرة على الشاشة.. أما طعامهم فيفضلون تناوله على الساعة الثامنة؛ خلال نشرة الأخبار.. إذ يجتمعون ــ حين يكتمل نصابهم ــ في حجرة المطبخ؛ أين يحلو لهم تناول الطعام بحرية تسمح بالصخب، والعراك أحياناً..

فالطعام هذه الليلة من الأطباق التي يفضلها (قدور) إنه الكسكس.. إنه يحب هذه الأكلة حباً جماً.. فهو من الثوابت التي لن يتخلى عنها أبداً.. وكأن يردد بينه وبيه، نفسه:

◄ حتى الذين يحلو لهم كسر الثوابت لا يميلون إلى إنكار ثبات الكسكس في عاداتهم وتقاليدهم.. مع أن هذا الطبق بقي حياً وسائداً على الموائد عشرات القرون على أقل تقدير.. نعم وربما أكثر من ذلك..

تذكر (قدور) أنه سأل يوماً أستاذاً من أقربائه عن معنى كسكس.. فتبسم ذلك الأستاذ وقال:

ــ أصل الكلمة عربي.. لقد جاءت من: كَسْكَسَ كَسْكَسَة الشيء: أي دَقَّهُ..

◄ إذن فلهذا الطبق جذور متأصلة في المجتمع؛ وعلى الرغم من قدم منبته؛ فلم يزل ثابتاً وحاضراً في الموائد كافة.. إنه جدير ــ حقاً ــ بحب الناس له..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويستحق التبجيل والتفضيل على الأطباق والمأكولات كلها..

ومن يرى (قدور) وهو يلتهم طعامه يدرك جيداً مدى حبه لهذا الطبق؛ كما يكتشف حجم الشهية اللامتناهية التي يتميز بها؛ خاصة عندما يكون الطعام كسكس..

ومع ما عرف عنه من شهية، واستغراق في الأكل؛ فقد توقف ــ فجأة ــ عن المضغ.. لقد أحس بجفاف في حلقه.. وشعر بصعوبة في بلع اللقمة.. فتناول ــ بسرعة ــ كوب الماء الذي أمامه وشرب جرعة كبيرة منه؛ وصاح:

◄ تباً لهذه البرامج الرديئة.. إنها مزعجة..

فانتفض أبناؤه من المفاجأة، واستداروا إليه بكاملهم دفعة واحدة؛ لقد أدهشهم تصرف والدهم.. كانوا مستغرقين ــ ببراءة ــ في مشاهدة ما يعرض عليهم في التلفاز.. وقال كبيرهم لوالده:

◄ ما بك يا أبي.. ألا تعجبك هذه الحصة..؟

◄ وما الذي يعجبني فيها..؟ ها أنت ترى لقد جف حلقي، وانقطعت شهيتي..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

◄ مـــا علاقـــة هـــذه الحصـــة بشهيتـــك ولعابـــك..؟

◄ عجبـــاً..!! ألا تتقـــزز نفســـك عنـــد رؤيـــة مـــا تكرهـــه..؟ فحـــواس الإنســـان مـــن: نظـــر وشـــم وذوق ولمـــس وسمـــــع كلهـــا تنقـــل إليـــك صـــوراً معنويـــة قـــد تسبـــب لـــك أحيانـــاً التقـــزز والغثيـــان؛ وأنـــا الآن أحـــس بذلـــــك.. لأن سمـــــعي وبصـــري نقـــلاً إليَّ صـــوراً وأصواتـــاً تشمئـــز منهـــا نفـــسي؛ فجـــف حلـــقي، وانقطعـــت شهيـــتي..

◄ عجبـــاً..!! أنـــا لـــم أشعـــر بهـــذا.. مـــــع أنـــــني غيـــــر راضٍ كـــل الـــرضـــا عـــن برامـــج التلفـــاز..

◄ إنـــك واخوتـــك أبريـــاء؛ وليـــس لديكـــم رصيـــــد ثقـــــافي يحصنكـــم.. فأنتـــم مـــازلتـــم صفحـــة بيضـــاء؛ ولـــم تشحـــــن نفوسكـــم وعقولكـــم بخلفيـــة فكريـــة؛ تمنحكـــم القـــدرة عـــــلى اكتشـــاف الأخطـــار.. مـــع أن كـــل صفحـــة بيضـــاء يمكـــــن أن تســـود في أي لحظـــة؛ وبكـــل الوسائـــل..

◄ إلى هـــذا الحـــد يـــا أبي..؟!

◄ نعـــم إلى هـــذا الحـــد وأكثـــر.. لـــذا فقـــد آذتـــــني أنـــــا هـــذه الحصـــة؛ الـــتي أرى فيهـــا خطـــراً عـــلى المشاهديـــن.. هـــل تنبهـــت أنـــت وإخوتـــك إلى ذلـــك..؟

◄ لا.. إنهـــا حصـــة (جديـــدة) ومسليـــة في نظـــري..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

◄ ألم تستمع إلى صوت منشط الحصة؛ الذي يشبه صوت المفرقعات المزعجة.. وتلك البسمة البشعة التي تشبه التكشير؛ وتزيد في هولها تلك الفرجة المتسعة بين قواطع أسنانه..

◄ هاهاها.. أضحكتني بوصفك هذا..

◄ يا بني.. لا بد لنجاح البرنامج التلفزيوني من مراعاة الذوق السليم؛ فيما يبث مسموعاً كان أم مرئياً.. اسمع.. اسمع الآن.. ألا تتخيل أنك في سوق أسماك.. اسمع إلى ألفاظ المنشط.. اسمع ما يقوله.. هل تستفيد شيئاً..؟ هل تتلذذ بشيء..؟ لا فائدة ولا ترويح.. فما الداعي إذن لبرامج مثل هذه.. إنها تقدم للمشاهد شيئاً واحداً ــ على الأقل ــ وهو تعويده على الذوق الرديء..

◄ أنا لا يهمني من هذه الحصة سوى الأغاني..

◄ إيه.. كان في الإمكان إذاعة الأغاني ضمن إطار مشوق وجميل.. إن ما نراه الآن تجاوز حدود الآداب واللياقة.. هل يدخل هذا في مجال التسلية..؟ لا.. هل هو ثقافة وتثقيف..؟ لا طبعاً.. لو قدموا الأغاني دون منشط لكان أفضل.. ففي ذلك فائدة للمشاهد الذي يعفى من الإزعاج، وفيه توفير لأموال مؤسسة التلفزيون..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

◄ مـــا الـــذي يجبـــرك عـــلى مشاهـــدة هـــــذه الحصـــــة..؟ يمكنـــك تنـــاول طعامـــك في المطبـــخ؛ مـــا دامـــت مشاهـــــدة التلفـــاز تؤذيـــك..

◄ إيـــه قالوهـــا يـــا ولـــدي قبلـــك في حصـــة مشابهـــة لهـــذه الحصـــة.. لقـــد تجـــرأ ذلـــك المنشـــــط بوقاحـــــة؛ وطلـــــب ممـــن لا يستسيغـــه مـــــن المشاهديـــــن أن يقفلـــــوا جهـــــاز التلفـــاز.. قالهـــا بكـــل وقاحـــة: ((اللِّي مَـــا عْجَبْهُمْـــشْ الحَـــالْ إيفَرْمُـــوا التِّلِفِزْيُـــونْ)).. نعـــــم طلـــــب منهـــــم أن يقفلـــــوه ويتركـــوه لحالـــه؛ كي يذيـــع مـــا يريـــده مـــن أهـــوال.. بهـــذا يكـــون قـــد امتلـــك مؤسســـة وطنيـــــة؛ يفعـــــل بهـــــا مـــــا يشـــاء.. أليـــس هـــذا منتـــهى البجاحـــة والتحـــدي الأهـــوج..؟!

◄ أبـــداً.. أنـــا لا أقصـــد ذلـــك..! ولكـــني أحببـــت أن تكمـــل طعامـــك في ســـلام..

◄ مـــا العمـــل يـــا بـــني؛ فقـــد وقعـــت في كميـــن خبيـــــث.. فـــإذا لجـــأت إلى مكـــان آخـــر قـــد أزعـــــج أمـــــك؛ الـــــتي ستضطـــر إلى نقـــل طعـــامي إلى حيـــث أذهـــــب؛ وإذا بقيـــت حيـــث تـــراني فـــإني سأخســـر ـــ حتمـــاً ـــ طعـــامي بسبـــــب فقـــدان الشهيـــة..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

◄ مـــا العمـــل إذن..؟ دع التلفـــزة وشأنهـــا، واهتـــم بطعامـــك.

◄ كيـف يتسـنى ذلـك لي..؟ لقـد شعـرت بـأن حريـتي قـد صـودرت.. بـل أحسسـت كمـن يـرى أحدهـم يعتـدي عـليّ ويدخـل داري عنـوة وبـدون استئـذان..

◄ اعتـدى عليـك..؟!! كيـف ذلـك يـا أبي..؟!

◄ يـا بـني إن الزائـر هـذه المـرة ثقيـل الظـل، خفيـف العقـل، سليـط اللسـان، بشـع الأوصـاف؛ لا يحتـرم غيـره، ولا يكتـرث بالآداب، وحسـن السلـوك..

◄ تقصـد ذلـك المنشـط الجديـد.. ومـا رأيـك يـا أبي فـي المنشـط الثـاني..؟

◄ مـن..؟ أ آه.. ذلـك الـذي يظهـر بيـن الحيـن والآخـر؛ كالعـارض السخيـف في الإعلانـات التجاريـة..؟ إنـه يظهـر ويختـفي مثـل رقـاص ساعـة الحائـط.. إنـه لا يثبـت عـلى وضـع معيـن.. فحالـه كحـال هـذه المائـدة الـتي أتنـاول عليهـا طعـامي..

◄ تلـك طريقـة جديـدة في التنشيـط..

◄ وهـل طريقتـه تقتـضي الازدراء بالمشاهديـن أو شتمهـم..؟

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

◄ الازدراء بالمشاهدين وشتمهم..؟!! كيف حدث هذا..؟! لم أفهم..

◄ ألا ترى معي إلى الكلاب التي في الحظيرة..؟

◄ آ آه.. لقد صوروا الحصة هذه المرة في حظيرة للكلاب.

◄ نعم؛ ولكن عليك بالقراءة خلف الصورة المعروضة يا بني .. فما هو المقصود من إظهار الكلاب بهذه الطريقة..؟

◄ أ أ أ.. لا أعلم.

◄ ألا ترى كيف يردعهم المنشط؛ بأسلوب مسرحي مبالغ فيه.. دون مسوغ أو داع لذلك.. كأنه يقول لمعارضيه بأسلوب إيحائي: توقفوا عن النباح علينا..

◄ إذن كان يقصد المشاهدين أيضاً؛ حينما صرخ متهما الكلاب؛ قائلاً: ((آه.. قطعولي الكابل))..

◄ أحسنت يا ولدي.. فبهذا الأسلوب؛ يتمادون في شتم المشاهدين والاستخفاف بهم.. فالمعارضون من المشاهدين في نظرهم كالكلاب التي لا تتوقف عن النباح..

◄ وما الذي يقصده بقوله: ((قطعولي الكابل))..؟

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

◄ ألا تسمع بمن يقول على خصومه: ((أنهم قطعوا به الحبل)).. هذا هو ما يرمي إليه ذلك المنشط بالضبط؛ إذ يزعم أن المعارضين عرقلوا تسلقه بقطعهم للحبل الذي يشده..

◄ شيء عجيب..!! بل أمر فضيع أن يوصف المشاهد بالكلب..

◄ هذا منتهى الانحطاط الإعلامي.. والأدهى من ذلك؛ أن الشتم والإهانة يبتاعها المشاهد بدراهمه.. فهو يمول شاتمه، ويكافئ جهازاً يستخف به ويزدريه.. وما عليه إلا سماع البجاحة المنافية للأخلاق، ومشاهدة الفضائح المخالفة لقيم الأمة.. ولا سبيل للاعتراض أو الاحتجاج؛ ومن أراد ذلك، فليشرب من ماء البحر..

◄ ولكن قد يكون من يرغب في مشاهدة حصة كهذه.. أليس من حقه ذلك..؟

◄ من..؟! آ آه.. أنت واهم.. فمجتمعنا ينقسم إلى فئتين: أغلبية مقهورة وفقيرة؛ وأقلية مرفهة ومدللة.. ولأعضاء الأقلية ــ طبعاً ــ الحق في اختيار ما يحبونه؛ ولكنهم لا يشاهدون قناتنا بالتمام؛ بسبب تبعية ما، وارتباطات ثقافية معينة.. لذا فهم مدمنون على مشاهدة قنوات أجنبية؛ تأتيهم بواسطة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الهوائيات المقعرة؛ التي يستطيعون امتلاكها؛ بحكم قدراتهم المادية.. لذا فهم مرتبطون عضوياً بتلك القنوات الأجنبية؛ التي توفر لهم ما يحتاجونه.. ولا يتنازلون حتى إلى مشاهدة قناتنا؛ استكباراً وتعالياً منهم.. ولن يتنازلوا إلى الحد الذي يشاهدون فيه هذه القناة؛ مهما قُدم لهم من صنوف التملق والإسترضاء.. أما الأغلبية المهمشة؛ فأفرادها هم زبائن القناة الوطنية. ومن هذه الفئة التعيسة نحن؛ إذ نشاركها الشقاء، ونشاطرها التهميش.. إن هذه الفئة متشبثة بالقناة الوطنية على الرغم مما يقدم فيها من سموم وعلقم..

◄ لماذا لم تلتحق هذه الفئة بركب الآخرين، وتنضم لأصحاب الهوائيات المقعرة..؟

◄ المانع في ذلك يتمثل في عوامل ثقافية؛ منها: التقاليد واللغة.. ومع هذا لقد سمعت عن ظهور قنوات فضائية عربية في الأفق.. فإن تم ذلك، ووصل بثها إلى بلادنا بأثمان معقولة؛ ستخلق جواً جديداً في الساحة الوطنية؛ وبذلك تتمكن الأغلبية المهمشة في المجتمع من التنفس، وفتح النوافذ على محيطها الطبيعي.. وبذلك ستجد القناة الوطنية

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

صعوبة في الاحتفاظ بمشاهديها التقليديين.. كل ذلك ((بفضل)) المسيرين ((الأفذاذ)).. لهذه القناة..

◄ ولكن كيف يرضى المسئولون على الإعلام والثقافة بهذا..؟

◄ لأنهم لا يعلمون حقيقة ما يجري.. خاصة إذا كانوا هم أنفسهم من الفئة الأولي المرفهة.. فهم طبعاً من المدمنين على مشاهدة القنوات الأجنبية..

وهنا تتدخل الزوجة التي كانت تتابع الحوار بعناية وصمت:

◄ ولكن كل شيء ممكن تجاوزه والسكوت عنه إلا أن يوصف المشاهدون بالكلاب..

◄ هذا هو منطقهم المتعفن.. لقد أرادوا المساس بكرامة المواطن، وتحطيم معنوياته؛ فأهدوه هذه المفرقعات المؤذية..

كانت (هادفة) الطفلة الصغيرة الذكية في المقعد المجاور لأبيها تستمع بعناية.. إنها تجيد الاستماع، ولا تكثر الكلام.. تلك هي عادتها.. كانت تتابع الحوار بصمت.. ومع ذلك فقد تصدر من فيها أحيانا بعض الأقوال الحكيمة.. وبعد تفكير وتأمل قالت لأبيها:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

◄ مـــا شـــأن الكـــلاب هنـــا.. فـــرب كلـــب أليـــف خيـــر مـــن إنســـان مسعـــور.. فالكلـــب أميـــن، والكلـــب وفـــي، والكلـــب لا يســـرق؛ بـــل يكافـــح السارقيـــن؛ والكلـــب لا ينبـــح عـــلى صاحبـــه.. ولا يكـــذب.. أسمعتـــم بكلـــب يكـــذب..؟ هـــل كـــل النـــاس هكـــذا..؟

◄ مـــرحى.. مـــرحى بنيـــتي.. فكلامـــك أعـــاد إليّ شهيـــتي.. وكلامـــك لا يقـــدر بثمـــن.. سأتـــرك مشاهـــدة هـــذا الجهـــاز اعتبـــاراً مـــن اليـــوم؛ ولا أجلـــس أمامـــه حـــتى أتمكـــن مـــن شـــراء هـــوائي مقعـــر؛ يسمـــح لي بالتقـــاط مـــا أميـــل إليـــه، ويفيـــد أبنـــائي..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

البـــريء

تقـــدم نـــــادل المقـــــهى إليهمـــــا بخطـــــوات ثقيلـــــة كخطـــوات سجيـــن مكبـــل بالأصفـــــاد؛ وحركـــــات وئيـــــدة مطاطـــة؛ ينبعـــث منهـــا الكســـل والفتـــور واللامبـــالاة. وقـــف خلـــف أحـــد الجالسيـــن حـــول (طاولـــة) فـــي زاويـــــة مـــــن زوايـــا المقـــهى. لقـــد تعمـــــد أن يـــــأتي خلفهمـــــا؛ كأنـــــه يتحـــاشى رؤيـــة وجهيهمـــا؛ وقـــال وهـــو ينظـــر إلى السقـــف:

◄ وِي.. وَاشْ تَشَرْبُـــوا..؟

فانتفـــض (مـــراد) والتفـــت خلفـــه؛ ينظـــر إلى صاحـــــب الصـــوت المفـــاجئ المفـــزع؛ فـــرأى مخلوقـــاً طويـــل القامـــة، أشقـــر المحيـــا، أزرق العينيـــن، مفتـــول الشـــــوارب؛ تبـــــدو عليـــه مسحـــة مـــن الجمـــال الطبيـــعي الزائـــل؛ أفســـد جمالـــه بمبالغتـــه في تشويـــه ملامحـــه بتكلـــف مصطنـــــع؛ إذ كـــــان يعصـــر بشرتـــه كـــي تبـــــدو عليـــــه علامـــــات الغضـــــب الكـــاذب؛ فانعكـــس ذلـــك كلـــــه عـــــلى تقاطيـــــع وجهـــــه، وحركـــات أطرافـــه المرتعشـــة.

إن تجهمـــه الباهـــت، وعبوســـــه المفـــــرط، وتقطيـــــب حاجبيـــه الملتصقيـــن ببعضهمـــا، وانكمـــاش بشرتـــــه؛ كلهـــــا عوامـــل سلبيـــة تكاتفـــت جميعهـــــا لـــــكي تحـــــول شكلـــــه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الطبيعي إلى صورة قبيحة، ومنظر بشع لا يستساغ.. لهذا أصبح النظر إلى وجهه يبعث على الاشمئزاز والتشاؤم..

كان ذلك المخلوق يحمل في يده اليمنى صينية معدنية؛ تسيل من حافتيها بقيا المشروبات المتدفقة بداخلها من الفناجين التي يحملها للزبائن.. وبذلك يتأكد الزبون أنه لن يحظى بكأس أو فنجان مليء بما يحب من مشروب.. وحتى يكفي (مراد) نفسه معاناة تصفح وجه النادل؛ سارع إلى طلب الموجود من المشروبات:

◄ أعطنا قهوتين (بْرَاسْ) لو سمحت.

فأحابه النادل بغلظة وجفاء:

◄ مَا كَانْشْ..

◄ أمَّالاَ.. فِيشِي..

◄ مَا كَانْشْ..

◄ عَصِيرْ مَشْمَاشْ..

◄ مَا كَانْشْ..

◄ أورَنْجِينَا..

◄ قُلْتْ لَكْ مَاكَانْشْ..

فخاف (مراد) أن يفيض غيظ النادل من كثرة الطلبات الجوفاء؛ التي لن تنتهي مهما طالت

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

القائمـــة.. فاختـــار اتقـــاء شـــر ذلـــك المخلـــوق؛ الـــذي بـــدأت تظهـــر عليـــه علامـــات الغضـــب المتأصـــل فيـــه تلقائيـــاً؛ إذ كـــان متحفـــزاً للشـــر في كـــل لحظـــة. فســـارع (مـــراد) بالقـــول: قاطعـــاً للشـــر الـــذي أخـــذت بـــوادره تظهـــر فـــي مقلـــتي ذلـــك النـــادل الغريـــب الأطـــوار..

◄ إذن.. مـــاذا عندكـــم..؟!

◄ كريـــش.. آتـــاي.. حليـــب سخـــون.. كرواســـون.

وهنـــا تدخـــل (سالـــم) الـــذي كـــان يتابـــع ــ باندهـــاش ــ مـــا يجـــري بيـــن رفيقـــه (مـــراد) والنـــادل العجيـــب:

◄ يـــا أخي؛ هـــات مـــا لديـــك مـــن مشـــروب.. هـــات اثنيـــن (تـــأي) وخلصنـــا..

وبعـــد انصـــراف النـــادل؛ قـــال (سالـــم) بنبـــرة فيهـــا سخـــط واستنكـــار:

◄ مـــا هـــذه المقـــهى..؟! كـــل الطلبـــات فيهـــا مـــردودة..!

◄ لـــم تكـــن هكـــذا في السابـــق.. كانـــت أفضـــل مقـــهى في المدينـــة..

◄ والآن أصبحـــت أســـوأ مقـــهى..

◄ هـــذه الظاهـــرة عمـــت ــ الآن ــ مقـــاهي المدينـــة كلهـــا..! إنهـــا ظاهـــرة غريبـــة حقـــاً..!

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

◄ وزاد الطين بلة ندرة المواد الاستهلاكية..

◄ ليست الندرة في المواد الاستهلاكية هي السبب.. وما علاقة المواد الاستهلاكية بآداب المعاملات، وجودة الخدمات، واحترام الزبائن..؟ ألا ترى هذا النادل العجيب..؟! ألم تلاحظ تلك الخدمة الرديئة..؟ وذلك المظهر المحزن..؟! ألا يجلب الكلام معه الكآبة والتقزز..؟ أرأيت كيف يبخل بالحديث الطيب، ويشح بالبسمة المشرقة..؟ كأنه يخاف أن تسرق منه بسمته، أو تنهب ألفاظه..!

◄ يبدو أنه يود في داخل نفسه أن يسدد لوجوه زبائنه لكمات بدلاً من تقديم الخدمات..! لعله ساخط على الناس جميعاً.. لا لشيء سوى كراهيته لعمله الذي أجبره على خدمة غيره..!

◄ إنه عدواني الطباع..

◄ إيه.. كل إنسان وطبعه.. لعله يعاني من مشاكل اجتماعية ونفسية.. فأبناء جلدتنا يا أخي (مراد) تعرضوا لضغوط رهيبة، وقهر بشع، وظلم بغيظ؛ فأثَّرَ ذلك كله على نقاء نفوسهم، وسداد سلوكهم؛ وضيق فسحة الآمال فيهم.. فهربوا إلى ظلمة الليل للاختفاء، وزوايا السخط للانطواء..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

◄ يـا أخي هـذه مسوغـات غيـر مقبولـة.. فالقضيـة ـ كمـا أرى ـ تتعلـق بأزمـة اجتماعيـة ـ وبالتحديـد ـ تربويـة؛ أزمـة يعـاني منهـا مجتمعنـا بكاملـه..

◄ هـذا صحيـح.. ولكـن قلـوب النـاس هنـا مشحونـة بالحقـد والكراهيـة.. كراهيـة الآخريـن.. كراهيـة كـل غريـب.. الحقـد عـلى القريـب والبعيـد.. ولا سبيـل إلـى المحبـة، ولا منفـذ إلى الرحمـة.. أليـس هـذا تفسيـراً مقنعـاً لمعانـاة صحيـة، ولعقـد نفسيـة مزمنـة يصعـب علاجهـا..؟ أنظـر حولـك.. ألا تشاهـد الوجـوه العابسـة في كـل مكـان..؟ أتحـداك أن هديتـني إلى بسمـة واحـدة فـي شفـاه الجالسيـن بهـذه المقـهى.. فالبشاشـة هنـا مرفوضـة..

◄ لا تقـل هـذا يـا أخي (سالـم).. فبلدنـا بخيـر والحمـد اللـه.. كيـف تعمـم حالـة واجهتهـا عشوائيـاً عـلى شعـب بكاملـه..؟! فهـذا النـادل البائـس ليـس الشعـب كلـه، ومقـهى كهـذه ليسـت عينـة صالحـة للقيـاس، أو لضـرب الأمثـال..

◄ أنـت متفائـل دائمـاً يـا أخي (مـراد).. بـل تبالـغ أحيانـاً في تفاؤلـك؛ وهـذا ـ طبعـاً ـ يزيـغ بـك عـن جـادة الصـواب.. ألا تـرى الحقائـق المـرة..؟ ألا تعيـش

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بيـــن النـــاس..؟ ألا تعـــاني كمـــا يعـــانـــــون..؟ ألا يؤلمـــــك الـــذي تـــراه..؟

◄ بـــلى.. ولكـــن حـــبي لأهـــلي، ووفـــائي لبلـــدي وإيمـــــاني بقـــدرات شعـــبي تمـــلأ كـــل فـــراغ في فـــــؤادي، وتـــــضيء مجـــالات بصـــري.. فـــلا أرى ســـوى الخيـــــر والأخيـــــار.. صدقـــني يـــا أخـــي.. لا فائـــــدة فـــي اليـــــأس؛ ولا عـــــلاج بالتشـــاؤم..

وفي هـــذه اللحظـــة شعـــرا بيـــد النـــادل تضـــع فناجيـــن الشـــاي عـــلى المائـــدة بحركـــة فظـــــة غليظـــــة؛ فانسكـــــب بعـــض الشـــاي عـــلى المائـــدة؛ ثـــم عـــول عـــــلى الذهـــــاب دون أن يكلـــف نفســـه عنـــاء مســـح مـــا سكبـــــه.. فغضـــــب (مـــراد) مـــن هـــذا السلـــوك؛ وقـــال للنـــادل:

◄ مـــا هـــذا..؟! تمهـــل.. ضـــــع الفناجيـــــن بهـــــدوء يـــــا أخي..!!

فلـــم يُجِـــبْ ذلـــك النـــادل؛ وأعـــــطى لهمـــــا بظهـــــره وانصـــرف؛ دون اعتـــذار أو تأســـف؛ كأنـــــه كـــــان يدخـــــر الكـــلام ليـــوم الحاجـــة..

◄ أرأيـــت..؟! لقـــد تعمـــد سكـــب الشـــاي أمامنـــــا.. لقـــــد وضـــع الفناجيـــن بطريقـــة غيـــر لائقـــــة.. فعلهـــــا بتوتـــــر وعصبيـــة غيـــر مفهومـــة..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

◄ أمـــر عجيـــب حقـــاً..!!

◄ يبـــدو أنـــه مصـــاب بحالـــة مرضيـــة؛ فهـــو يشعـــر أنـــه مجبـــر عـــلى خدمـــة غيـــره.. إنـــه يتمـــنى أن يرمي الفناجيـــن في وجـــوه الزبائـــن؛ بـــدلاً مـــن وضعهـــا أمامهـــم بهـــدوء..!!

◄ لعلـــه مصـــاب بـــداء الرُّعـــاش في يديـــه..

◄ أبـــداً.. إن قـــوة عصبيـــة تشـــده نحـــو فعـــل ذلـــك؛ وغريـــزة عدوانيـــة تتملكـــه.. فهـــو مشـــدود بيـــن الانسيـــاق خلـــف هـــواه وبيـــن الخـــوف مـــن ردة الفعـــل الـــتي ستضـــره.. لـــذا فإنـــه حيـــن وضـــع الفناجيـــن انسكـــب بعـــض مـــا فيهـــا؛ نتيجـــة لسقوطهـــا بفعـــل الشـــد والدفـــع..

ودار حـــوار طويـــل ــ بعـــد ذلـــك ــ بيـــن (مـــراد) و(سالـــم)؛ حـــول مواضيـــع شـــتى تتعلـــق بالوطـــن، وبأبنـــاء الوطـــن.. فكـــان (سالـــم) يميـــل إلـــى تهويـــل الأمـــور، وتكثيـــف حجـــوم الأحـــداث؛ بينمـــا يعارضـــه (مـــراد) فـــي كثيـــر مـــن تفسيراتـــه، ويحـــاول أن يفنـــد جـــل تعليلاتـــه المتشائمـــة..

(فمـــراد) لا يكتـــرث كثيـــراً بالسلبيـــات الـــتي يشاهدهـــا، والـــتي تعتـــرض طريقـــه يوميـــاً؛ فهـــو يحـــاول ــ دومـــاً ــ إيجـــاد عـــذر لكـــل تصـــرف خـــاطئ.. وأملـــه كـــان كبيـــراً في بلـــده، وفي أبنـــاء شعبـــه.. ونظرتـــه للمستقبـــل كانـــت زاهيـــة ومتفائلـــة.. وهـــذا هـــو مبعـــث إعجـــاب (سالـــم) بـــه،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وحرصه على مرافقته.. فهو يشعر أنه يستمد منه ضالته.. ويكمل فيه نقصاً يعاني منه.. إذ يتزود من معينه الذي لا ينضب من الصبر والتفاؤل.. وعلى الرغم من إظهاره اختلافاً معه في وجهة النظر؛ فهو يحفه بمزيد من الاحترام والتقدير.. ومع هذا فقد طال حوارهما بدون نتيجة مقنعة.. وفجأة تنبه (مراد) للوقت المتأخر الذي داهمهما؛ فنظر إلى ساعته وقال:

◄ ياه.. لقد أضعنا وقتاً طويلاً.. هيا بنا.. فلدي عمل هام ينتظرني في المنزل؛ عليَّ أن أنهي تصحيح أوراق الاختبار الليلة.. لقد واعدت طلابي أن أوزع النتائج غداً بإذن الله.. إذا أردت الذهاب إلى منزلك فإني على استعداد لإيصالك معي بسيارتي.

◄ ذاك ما أتمناه.. فسيارتي ــ كما تعلم ــ ما زالت معطلة إلى الآن.. لم أجد قطع الغيار اللازمة..

◄ عليك بالسوق السوداء.. ففيها كل شيء..

◄ ولكن أثمانها خيالية.. فمن يستطيع مجاراة أسعار (الطرابندو)..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

◄ للضـــرورة أحكـــام.. المهـــم أن تجـــد ضالتـــك، وتتحصـــل عـــلى مـــا تحتاجـــه..

نهضـــا مـــن مقعديهمـــا ـــ بعـــد تسديـــد الحســـاب؛ تاركيـــن الثمـــن عـــلى المائـــدة؛ لعلمهمـــا سلفـــاً أن النـــادل لـــن يحضـــر بالسرعـــة المطلوبـــة.. ثـــم اتجهـــا خـــارج المقـــهى. وبعـــد مسيـــرة طويلـــة عـــلى الأقـــدام وصـــلا إلـــى الموضـــع الـــذي تـــرك فيـــه مـــراد سيارتـــه؛ لأنـــه لـــم يجـــد غيـــره؛ بحكـــم اكتظـــاظ المواقـــف العشوائيـــة المفتوحـــة، وغيـــاب المواقـــف الرسميـــة المحروســـة.. ولمـــا أراد مـــراد فتـــح البـــاب صـــرخ بهلـــع:

◄ أخ.. لقـــد كســـروا الزجـــاج..

◄ مـــاذا..؟!!

◄ كســـروا زجـــاج السيـــارة مـــن هنـــا.. مـــن جهـــتي..

◄ افتـــح البـــاب.. أنظـــر إن كانـــوا قـــد سرقـــوا شيئـــاً..

◄ وحـــتى البـــاب.. فقـــد تركـــوه مفتوحـــاً.. يبـــدو أنهـــم أرادوا سرقـــة شيئـــاً مـــا.. ولكنهـــم لـــم يجـــدوا مـــا يسرقـــوه.. فـــهي خاليـــة مـــن المذيـــاع؛ فأنـــا لا أحملـــه مـــعي داخـــل المدينـــة..

◄ أنظـــر جيـــداً.. أنـــت لا تـــدري.. فهـــم شياطيـــن..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

◄ لا شـــيء.. لـــم يأخـــذوا شيئـــاً..

◄ غيـــر معقـــول.. لا بـــد أنهـــم تحصلـــــوا عـــــلى شـــــيء مـــا.. لـــن يغامـــروا بـــدون نتيجـــة.. آه.. أنظـــر إلى الـــدولاب الاحتيـــاطي.. فالصنـــدوق الخلـــفي لسيارتـــــك يفتـــــح مـــــن داخلهـــا عـــلى مـــا أظـــن..

◄ نعـــم.. يفتـــــح مـــــن الداخـــــل.. آآآخ.. لقـــــد سرقـــــوا الـــدولاب فعـــلاً.. لا حـــول ولا قـــوة إلا باللـــه..

◄ مـــاذا تفعـــل يـــا أخي..؟! دفـــع اللـــه مـــا كـــان أعظـــم.. هـــؤلاء هـــم أبنـــاء بلدنـــا الذيـــن كنـــــت تدافـــــع عنهـــــم.. قلنـــا: أن شعبنـــا مريـــض؛ فقلـــت: هـــــذا كفـــــر وبهتـــــان.. أليـــس كذلـــك..؟!

◄ ومـــا علاقـــة الشعـــب بمـــا حـــدث يـــا أخي..؟! فالسرقـــة غريـــزة في الإنســـان مطلقـــاً؛ وهي موجـــــودة فـــي شعـــــوب العالـــم كافـــة..

◄ آآه.. مازلـــت مصـــراً عـــلى رأيـــك؛ بعـــد هـــــذا كلـــــه.. إذن مـــا عليـــك ســـوى مرافقـــتي يـــوم الجمعـــة إلى الســـــوق الســـوداء.. لعلـــك تجـــد دولابـــاً تبتاعـــه لسيارتـــك.. وربمـــــا تضطـــر إلى شـــراء دولابـــــك المســـــروق نفســـــه بأغـــــلى الأثمـــان..!! وبالمناسبـــة سأبحـــث ــ بـــــدوري ــ لسيـــــارتي عـــن قطعـــة الغيـــار اللازمـــة؛ حـــتى وإن كانـــت مسروقـــــة؛ حســـب ظـــني.. فالبائـــع في تلـــك الســـوق إمـــــا أن يكـــــون

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مـــن العامليـــن في (الترابنـــدو)، أو مـــن الضالعيـــن في ميـــدان النشـــل والسرقـــة.. فكـــل الأعمـــال في تلـــك الســـوق غايتهـــا واحـــدة وهي: تحطيـــم القيـــم، ونشـــر الفـــوضى، وزعزعـــــة الاقتصـــاد الوطـــني، وتكسيـــر الســـوق النظاميـــة..

◄ هيـــا اركـــب.. لا تهـــول الأمـــــر يـــــا أخـــي (سالـــــم)؛ فمازلنـــا بخيـــر.. ومـــا تـــراه ليـــس نهايـــة العالـــــم.. وكـــــل أزمـــة تلـــد الهمـــة.. وكـــل غمـــة تـــأتي بنعمـــــة إن شـــــاء اللـــه..

◄ أليـــس لتفاؤلـــك الخـــرافي حـــدود..؟! ألا تخـــــرج مـــــن قوقعـــة أوهامـــك..؟ مـــتى تـــرى حقيقـــة مـــا حولـــك..؟

◄ مـــازال التفـــاؤل يمـــلأ فـــؤادي.. ومـــا أشعـــر بـــه هـــــو حقيقـــة وليـــس وهمـــاً أو خيـــالاً.. ومـــا يكتنفـــك مـــن ظـــلام، ومـــا تفـــرزه مـــن تشـــاؤم هـــو الوهـــم بعينـــه..

انطلقـــت الســـيارة بهمـــا في شـــوارع المدينـــة المكتظـــة بالمـــارة، والمزدحمـــة بالسيـــارات المتدفقـــــة نحوهـــــا مـــــن الجهـــات الأربـــع للوطـــن.. كـــان السيـــر بالسيـــــارة وئيـــــداً ومتقطعـــاً؛ بسبـــب الازدحـــام مـــن جهـــة، وبسبـــــب الحفـــــر الـــتي تشـــوه الطرقـــات، وتنخرهـــا في الوســـط والأطـــــراف، وتجعلهـــا مثـــل قطعـــة جبـــن (القريـــار) المتعفنـــة..

ولـــم تغـــب ــ طبعـــاً ــ هـــذه المناظـــر البغيضـــة عـــن أعيـــن (سالـــم)؛ كمـــا أنهـــا لـــــم تسلـــــم مـــن ملاحظاتـــــه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الجارحة، وتعليقاته النارية.. فاستغل الفرصة التي منحتها لهما تلك المسافة الطويلة المملة؛ فانهال بالنقد اللاذع؛ وأخذ يعدد السلبيات التي تمر بهما الواحدة بعد الأخرى.. إذ استعان بالهموم على قطع الطريق..

وهكذا توالت انتقادات (سالم) واستنكاراته.. فيما يخص: ازدحام السيارات، وندرة المواصلات العمومية، والحفر في الطرقات، والقاذورات والنفايات المنتشرة على الأرصفة، ومياه الشرب الضائعة من قنوات صرف المياه بسبب الإهمال؛ بينما هي مفقودة في البيوت المحتاجة إليها..

هذه المواضيع كلها تناولها (سالم) بالنقد والتعليق دون كلل ولا ملل، وكانت محاور للنقاش بين الصديقين عبر المسافة التي قطعاها للوصول إلى منزل (سالم).

وأخيرا وصلا إلى الحي الذي يسكن فيه (سالم). كان الحي مشحوناً بالسيارات، وبالباعة المتجولين، وبالأطفال الذين لم يجدوا ميداناً للعب بالكرة إلا في الممرات، والطرقات المتربة، المليئة بالحجارة، وبعلب المصبرات، وبقايا الزجاج المهشم؛ فساحات اللعب معدومة تقريباً في ذلك الحي.. ولا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فرق ـ في هذا الحي ـ بين الطريق وبين ما يفترض أن يكون رصيفاً.. وتقدمت السيارة بصعوبة شديدة نحو باب العمارة المهشم.. فترجل (سالم) محيياً صديقه شاكراً ومودعاً..

جلس (سالم) ـ كعادته في كل مساء ـ بين أبنائه يتصفح صحف ذلك اليوم؛ فرن ـ فجأة ـ جرس الهاتف؛ فسارع إليه، وتناول السماعة:

◄ ألو.. من..؟

فيجيبه صوت عبر الهاتف.. صوت خافت، مغمور بالحزن والأسى:

◄ آلو.. سي (سالم)..

◄ نعم من يتكلم..؟

◄ أنا قريب (مراد).. أكلمك الآن من منزله.. (مراد) يرحمه الله..

◄ آ آ آ ه.. ماذا تقول..؟!! ماذا جرى.. تقول مات..؟! كيف..؟! لقد أوصلني منذ ساعات قليلة إلى هنا؛ كان في أتم صحة..!!

◄ رصده أحدهم عند عودته للمنزل، وأطلق عليه النار وهرب.. ففاضت روحه.. رحمه الله في اللحظة ذاتها.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

◄ لا حول ولا قوة إلا بالله.. كيف حدث هذا..؟ إنه مثال للمواطن الصالح.. ليس له أعداء أبداً.. كيف تم هذا.. ومن يكون قاتله..؟! كان متفائلاً باستمرار.. لم أره يوماً ساخطاً على أحد.. يا إلهي ما هذا..؟! فهو يحب الناس جميعاً.. ويتمنى الخير لكل البشر.. لقد افترقنا بعد حوار طويل بيني وبينه.. كان يرحمه الله مدافعاً عنيداً عن الشعب وأبناء الشعب بمختلف الفئات.. لماذا قتل..؟! ومن يكون قاتله..؟! سبحان الله..! إن لله وإن إليه راجعون.. إذا احتجتم إلى شيء فأنا على استعداد.

◄ لا شكراً.. لقد طلبت مني زوجته أن أعلمك بالخبر..

◄ سآتي إليكم غداً إن شاء الله..

غرق (سالم) في دوامة من التأمل والتفكير؛ بعد أن أعاد سماعة الهاتف إلى موضعها؛ ثم أخذ في طرح الأسئلة على نفسه:

◄ لماذا قتل (مراد)..؟! من هو عدوه..؟ ومن هو صاحب المصلحة في قتله..؟ سبحان الله.. لقد كان رحمه الله مدافعاً عنيداً عن الشعب، وأبناء الشعب.. هل كان مخطئاً..؟ هل كان واهماً في معتقداته..؟

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

◄ أتمـــنى ــ الآن ــ أن أكـــون أنـــا الواهـــم.. أمـــر رهيـــب حقـــاً.. لـــم يكـــن (مـــراد) ينتظـــر هـــذه النهايـــة، وبهـــذه السرعـــة.. إنـــه بـــريء مـــن كـــل دنـــس.. بـــريء مـــن كـــل شبهـــة.. بـــريء مـــن كـــل خطيئـــة..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لـوث من كـلام

لـم يكـن "سليـم" مهتمـا بزبائنـه ولا بتجارتـه الـتي يستـرزق منهـا.. لقـد جرفـه تيـار الحـوار المتدفـق والجـدال المتأجـج.. حـوار دار بينـه وبيـن ذلـك الزبـون المجهـول الشخصيـة..

كـان "سليـم" يفيـض غيظـاً ويجيـش سخطـاً.. لقـد تملكتـني الدهشـة حينمـا دخلـت متجـر "سليـم" فوجـدت نفـسي وسـط تلـك الدوامـة.. منغمسـاً ضمـن تيـارات جارفـة؛ حيـث الأمـواج المتلاطمـة الـتي تقـذف بي حينـاً إلى أقـصى الشمـال، وحينـاً آخـر إلى أقـصى اليميـن..

كنـت أتقلـب في ذلـك الأوار الفيـاض الـذي ينبعـث مـن صـدر "سليـم".. "سليـم" ذي الكياسـة والهـدوء والحكمـة.. فمـا الـذي أصابـه الآن..؟ لقـد أضـحى شخصـاً آخـر؛ غيـر الـذي أعرفـه.. مـاذا دهـاه يـا تـرى..؟ أيكـون ذلـك الزبـون قـد جـرح كرامتـه بقـول لـم يحتمـل ثقلـه..؟ أو يكـون أهانـه بفعـل ذميـم لـم يتقبـل وطأتـه..؟

حاولـت متابعـة الحكايـة، والاستمـاع إلـى تلـك الخصومـة اللفظيـة الدائـرة بينـه وبيـن الزبـون المجهـول

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الشخصيـــة.. لـــم أكـــن وحـــدي مهتمـــاً بمـــا يـــدور بينهمـــــا؛ لقـــد كـــان في المتجـــر عـــدد آخـــر مـــن الزبائـــــن؛ الذيـــــن نســـوا قضاياهـــم وحاجاتهـــم التموينيـــة وانجذبـــــوا لسمـــــاع الجـــدال الصاخـــب.. كـــان ذلـــك الشخـــص المجهـــول يتكلـــــم عندمـــا دخلـــت المتجـــر؛ فسمعتـــه يقـــول مواصـــــلاً حديثـــــاً فاتـــني ولـــم ألحـــق بـــه:

◄ لا أوافقـــك يا أخي في هـــذا الـــــرأي المتطـــــرف.. فمـــــا علاقـــة اللغـــة بالسيـــادة أو بالاستعمـــار..؟ فمفهـــوم السيـــادة لا يتعـــدى كونـــه مصطلحـــاً لـــه أبعـــــاد سياسيـــــة وقانونيـــــة؛ أخـــذ يتطـــور شيئـــاً فشيئـــــاً؛ منـــــذ العصـــــور الوســـــطى وحـــتى العصـــر الحديـــث.. غيـــر أن هـــذا المفهـــوم بـــدأ فـــي التراجـــع والـــزوال؛ خـــلال العشريـــة الأخيـــرة مـــن القـــــرن الحـــالي؛ تبعـــاً لاندثـــار المفهـــوم القـــومي، وبـــروز المنظـــور الإنســـاني الشامـــل..

فاندهـــش "سليـــم" مـــن هـــذا المنطـــق، وأجابـــه بحـــــدة وحمـــاس:

◄ مـــا هـــذه الفلسفـــة العقيمـــة يـــا هـــــذا..؟ أيعقـــــل مـــــا تقولـــه الآن..؟ وهـــل تبنـــــت أمـــــم العالـــــم كافـــــة هـــــذه الفلسفـــة.. أم هي مجـــرد أفكـــــار مطروحـــــة للاستهـــــلاك؛ كغيرهـــا مـــن السلـــع الـــتي أفلستنـــا وأفقـــرت شعوبنـــا.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

◄ لا يا أخي.. ليست هذه فلسفة عقيمة.. ألا تؤمن بمفاهيم الحداثة..؟ ألا ترى أنه لم يبق فرق بين فرنسي أو جزائري في هذا العصر..؟ لماذا لا نطوي صفحات الخطايا، ونتناسى كوابيس الأحقاد والدماء..؟ لم تكن ــ فيما أعلم ــ صفحات التاريخ التي جمعتنا بفرنسا كلها ملطخة بالسواد.. لقد اجتمعنا يوماً ما تحت سقف واحدة، وحكم موحد، وفي أرض مشتركة.. وكنا نتكلم لغة واحدة؛ ألم نكن فرنسيين قبل أربعين سنة..؟ والجزائر ألم تكن فرنسية في فترة ما من التاريخ.. فما يمنعنا اليوم من التعايش معاً بسلام..؟

◄ عجباً لك ولمنطقك الغريب يا هذا.. متى أصبحت الجزائر فرنسية..؟ ومتى قبلت فرنسا بالجزائريين كمواطنين فرنسيين كاملي الحقوق..؟ ومن قال أن فرنسا قبلت الآن مبدأ المساواة بين أبنائها والجزائريين..؟ فإذا حلمت أنت بتحقيق ذلك؛ فهو أمر مرفوض لدى فرنسا.. أتنكر دور الاستعمار في قمع لغتنا، ومحاولة إزالتها من كياننا دون أن يعطينا البديل..؟ فما نعرفه حتى الآن هو أن الجزائريين لم يسبق لهم أن جاهروا بالعداء نحو أي لغة أجنبية؛ وما نحن عليه الآن سوى ردود أفعال؛ تسبب فيها

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عـداء الفرنسيـين للغتنـا، وسعيهـم للقضـاء عليهـا.. هـل تجهـل كيـف كـان الفرنسيـون يضعـون الحواجـز أمـام مشاريـع التعليـم؛ الـتي يمكـن أن يستفيـد منهـا شعبنـا..؟ كانـت تلـك الحواجـز تقـام أمـام أي لغـة يمكـن أن يتعلمهـا شعبنـا؛ عربيـة كانـت أم فرنسيـة أم غيرهمـا.. لقـد دامـت تلـك الحواجـز زمنـاً فـاق القـرن والربـع.. ولـم يعـرف أبنـاء الجزائـر المقاعـد المدرسيـة بوفـرة إلا بعـد الاستقـلال..

◄ حسنـاً.. لمـاذا نقـف نحـن الآن فـي طريـق تعليـم اللغـة الفرنسيـة..؟

◄ بـل اسـأل نفسـك أنـت أولاً: لمـاذا تقـف فرنسـا وأتباعهـا حجـر عثـرة فـي طريـق تعلـم الشعـب الجزائـري لغتـه..؟ وعليـه فهـل يجـوز لنـا نحـن فـي هـذه الظـروف القيـام بمهمـة فرنسـا فـي نشـر لغتهـا مجانـاً بيـن أبنـاء شعبنـا.. أو بالأحـرى بواسطـة ميزانيـة جزائريـة..؟ كـان ذلـك مقبـولاً لـو لـم تتـاصـب فرنسـا لغـة بلادنـا العـداء.. وكانـت اللغـة الفرنسيـة تستحـق التضحيـة بالنفـس والنفيـس.. خاصـة ونحـن نعلـم أنهـا أصبحـت تحتـل مركـزاً متدنيـاً أمـام الإنجليزيـة وغيرهـا مـن لغـات التكنولوجيـا والعلـوم الحديثـة.. ألا يحـق لنـا سمـاع مـا تمليـه علينـا سيادتنـا فـي اختيـار أنسـب

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اللغـــات لـــرقي شعبنـــــا؛ ولضمـــــان تنميتـــــه الاقتصاديـــــة والصناعيـــة عـــلى أفضـــل شكـــل..؟

◄ يـــا أخي ألـــم تـــــدرك حـــــتى الآن أن عهـــــد السيـــــادة المطلقـــة قـــد ولـــى..؟

◄ مـــا هـــذا..؟ هـــل تشكـــك في أمـــر السيـــادة بالتمـــام..؟ أم أنـــت ممـــن يؤمـــن بالسيـــــادة المحـــــدودة أو الناقصـــــة..؟! أليـــس هـــذا مـــــا رفضنـــــاه شعبـــــاً وحكومـــــة، وأعلـــــن المسئولـــون صراحـــــة عـــــن معارضتهـــــم لهـــــذا المبـــــدأ المجحـــف..؟ ثـــم ألا تـــرى مـــــعي أن السيـــــادة يمكـــــن أن تكـــون محـــدودة؛ إذا أجبرنـــا عـــلى استعمـــال لغـــة غيرنـــــا بـــدلاً مـــن لغتنـــا الأم..؟ أيـــن هي عزتنـــا وكرامتنـــــا الـــــتي نتغـــنى بهـــا.. وأيـــن نقـــف مـــن حـــدود الاستقـــلال الحقيـــقي إذن..؟! هـــل تتجـــلى هـــذه العـــزة في الذوبـــــان والاندمـــــاج ضمـــن مزيـــج غريـــب؛ مزيـــج يتغلـــب علينـــــا اقتصاديـــــاً وتكنولوجيـــاً..؟!!

◄ يـــا أخي.. لـــم أقـــل هـــذا.. فكـــل مـــــا أراه أن أي لغـــــة أجنبيـــة هي عبـــارة عـــن عملـــة صعبـــة؛ تعطينـــــا مرونـــــة التحـــرك في الاتجاهـــات كلهـــا؛ وكلمـــا تضاعـــف رصيدنـــــا مـــن اللغـــات الأجنبيـــة ازدادت قدراتنـــــا وحريتنـــــا.. فـــــإن عادينـــا امتـــلاك اللغـــات الأجنبيـــة نكـــون كمـــن امتنـــع عـــن امتـــلاك العمـــلات الصعبـــة..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

◄ عجباً لك يا هذا..!! ومن قال أننا نعادي امتلاك اللغات الأجنبية..؟! بالعكس فنحن نرحب باللغات الأجنبية؛ ولكننا نقف في وجه هيمنة لغة بعينها.. نعم هيمنة لغة المستعمر على حياتنا؛ ونقف ضد كبح غيرها من اللغات الحية؛ تلك اللغات التي هي ــ في حقيقة الأمر ــ أفضل من هذه اللغة المهيمنة وأقدر منها في الميادين الحيوية كافة.. فاللغة الإنجليزية مثلاً مجالها واسع؛ كمجال الدولار في السعة والانتشار.. لماذا إذن نضع أنفسنا بمثابة خدام بدون أجر للغة الفرنسية المتخلفة أصلاً..؟!! وما قيل عن اللغة الإنجليزية يصح بالنسبة للغات عالمية أخرى جديرة بالتقدير..

◄ لا تنسى أن اللغة الفرنسية هي مكسب تاريخي لبلادنا؛ ويمكن إدخالها ضمن تراثنا الحضاري والثقافي..

◄ أبداً..!! لم تكن اللغة الفرنسية في يوم ما مكسباً تاريخياً لشعبنا.. ودليلي على ذلك عدد المتعلمين بهذه اللغة عندما قامت ثورتنا المجيدة.. إذ لم يكن يتجاوز عددهم آنئذ عدد أعضاء أحد النوادي التثقيفية في بلد متخلف.. وحتى هذه القلة من البشر حصلت على ذلك المكسب اللغوي بعد أن تعرضت

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

للابتزاز المهين.. أما انتشارها في بلادنا الآن فقد تم بأموالنا ومجهوداتنا لا غير.. نعم لقد قدمنا لفرنسا خدمة لم تكن تحلم بها.. نشرنا لغتها بين أبناء شعبنا؛ انطلاقاً من الاستقلال وإلى يومنا هذا..!! ولا أدري إن كنا قد أخطأنا أم أصبنا.. المهم أن نقف عند هذا الحد؛ وعلينا أن نتجه صوب لغات أخرى؛ تمكننا من الحصول على العلوم والتكنولوجيا بأقصر الطرق وفي أوجز الأوقات الممكنة..

◄ لا تنسى أن العامل الجغرافي يفرض نفسه علينا.. فنحن أقرب مسافة إلى فرنسا من غيرها؛ كأمريكا وبقية الدول الأنجلو ـ سكسونية.. كما أن حوض البحر المتوسط يجمعنا حضارياً وتاريخياً..

◄ هذه الحجة أضعف من الحجج السابقة.. فالعالم أصبح اليوم ـ كما يحلو لحكامنا ترديده ـ قرية صغيرة؛ وعلى رأسها شيخ القرية.. فما حاجتنا لنائب شيخ القرية؛ إذا كان الشيخ نفسه يفتح باب منزله أمامنا، ويرحب بنا في كل وقت..

◄ أنك تحتج بحكامنا؛ مع أنهم صرحوا في مرات عديدة أنهم مع تعليم اللغات الأجنبية؛ وضد الطابوهات..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

◄ نعم قالوا أنهم يشجعوا اللغات الأجنبية.. ولم يقولوا أنهم يكتفون بتعليم اللغة الفرنسية، ويقتصرون عليها دون غيرها..

◄ ولكنهم لا يجدون حرجاً في التكلم بالفرنسية.. ألم تشاهد ندواتهم..؟ ألم تسمع خطاباتهم في الداخل والخارج..؟ ألم يجيبوا في الندوات الصحفية باللغة الفرنسية..؟ بل أجابوا حتى السائلين بالعربية من العرب بلغة فرنسا..

◄ قد يكون لهم عذرهم؛ ربما يعود ذلك إلى انعدام وسائل الترجمة الفورية..

◄ ولكنهم تكلموا أيضاً في الجزائر باللغة الفرنسية؛ مع أن قاعة المؤتمرات تتوفر على عدد لا بأس به من المترجمين بالعربية، وبوسائل ترجمة في منتهى التطور؛ حدث هذا في الوقت الذي تعتبر فيه اللغة العربية لغة رسمية في المؤتمرات الدولية..

◄ أأأأه.. ربما يكون.. إإإه.. ربما يكون لهم عذرهم..!! قد يكون ذلك بغرض إشعار الرؤساء الضيوف بمتانة وشائج الاتصال بين الأطراف كلها..

◄ ولكن ثمة رؤساء يتكلمون بالأنجليزية ويجهلون الفرنسية؛ فما الداعي لمخاطبتهم بلغة لا يفهمونها..؟ وفي هذه الحال تتساوى الفرنسية مع العربية؛ فلماذا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اختيـرت الفرنسيـة..؟ أليسـت هـذه رسالـة معينـة أراد الحكـام إيصالهـا للذيـن يعارضـون توجههـم الثقـافي الحقيـقي..؟

◄ أبـداً.. رسالـة مـاذا..؟!! أيعقـل أن يوجـه حاكـم جزائـري رسالـة إلى شعبـه مفادهـا أنـه ضـد لغتـه وضـد طموحـه ورغباتـه..؟!! أليـس الحاكـم هـو حـامي الدستـور..؟! أيعقـل أن يقـف ضـد قانـون تعميـم اللغـة العربيـة؛ بعـد تصديـق البرلمـان عليـه.. لا.. لا أصـدق مـا أردت بثـه مـن إيحـاءات خطيـرة.. فـإن تكلـم الحاكـم لدقائـق معـدودة بالفرنسيـة؛ فقـد خاطـب شعبـه بالعربيـة مـرات عديـدة؛ خاصـة في الخطـب الرسميـة..

◄ لا علينـا.. فمـا رأيـك إذن في كـلام ذلـك الحاكـم أثنـاء النـدوة الصحفيـة الـتي جمعتـه بمديـري الصحـف العالميـة؛ ألـم تـر كيـف كـان يجيـب بالفرنسيـة الذيـن سألـوه بلغـة عربيـة..؟!!

◄ اسمـع يـا هـذا.. لقـد نفـذ صبـري معـك..!! مـاذا تريـدني أن أقـول..؟ أتستدرجـني لارتكـاب خطـأ.. لا.. لـن أحقـق لـك مـا تـرمي إليـه..!! فعـلى الرغـم ممـا قلتـه؛ فمـا زلـت واثقـاً كـل الثقـة بـأن بلـدي ليـس عقيمـاً مـن الرجـال المخلصيـن الأوفيـاء للغتهـم وأصالتهـم.. فـإن أخطـأ واحـد؛ فلـن نعـدم الرجـال العقـلاء

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والغيوريـــن.. فمـــن رفـــع الســـلاح في وجـــه فرنســـا فـــي الأيـــام الصعبـــة؛ لـــن يستسلـــم فـــي الأوقـــات العاديـــة السهلـــة.. اتركـــني الآن لعمـــلي؛ فالزبائـــن ينتضرونـــني لأقـــضي حاجاتهـــم..

خرجـــت مـــن متجـــر سليـــم أجـــر أذيـــالي.. لقـــد اســـودت رؤيـــتي للمستقبـــل.. اللـــه هـــو اللطيـــف بأبنـــاء هـــذه البـــلاد الطاهـــرة.. لقـــد تذكـــرت الآن مـــا كنـــت أجهـــد نفـــسي عـــلى نسيانـــه.. تذكـــرت الحمـــاس الفيـــاض؛ الـــذي أبـــداه أعضـــاء عائلـــتي؛ بـــدءاً بيـــوم الإعـــلان عـــن نتائـــج الانتخابـــات الأخيـــرة.. كانـــوا جميعـــاً يعتقـــدون فـــي قـــرب نهايـــة مأســـاة بـــلادي، ويستبشـــرون خيـــراً بمـــا أفرزتـــه الانتخابـــات..

كانـــوا ــ ولأول مـــرة ــ يجتمعـــون أمـــام التلفـــاز؛ لسمـــاع تلـــك الخطـــب المتميـــزة.. ولكنهـــم ــ فجـــأة ــ تحولـــوا إلى معلقيـــن وناقديـــن؛ بعـــد سماعهـــم للخطـــب بلغـــة غيـــر اللغـــة الـــتي تعلموهـــا فـــي المدرســـة الجزائريـــة؛ المدرســـة المعربـــة أصـــلاً منـــذ مـــدة..

قـــد يكـــون أبنـــائي عـــلى حـــق عندمـــا صرحـــوا لـــي بشكوكهـــم.. كـــان الجديـــر بي ألا أقمعهـــم بفـــورة غضـــبي.. نعـــم كـــان عـــلي أن أستمـــع لهـــم؛ وأحـــاول مساعدتهـــم عـــلى فهـــم بعـــض القضايـــا الشائكـــة.. أأأه.. كيـــف

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أساعدهـــم عـــلى الفهـــم وأنـــا أعجـــز الخلـــــق عـــــن فهـــــم الحقيقـــة..؟!!

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

التهميـــش

لـــم أجـــد في دار صديـــقي (نافـــــع) مـــــا يمكـــــن أن يـــرضي أو يبهـــج.. لـــم يكـــن منزلـــه كمـــــا أطنـــــب فـــي الوصـــف والمديـــح، أو كمـــا أسهـــب في قولـــــه الفصيـــــح.. واكتشفـــت عنـــد زيـــارتي أن كـــل مـــا بـــه قبيـــح.. إذ بـــــدا في شكلـــه ككـــوخ مـــن صفيـــح.. فهالـــني أن يسكـــن صديـــقي المثقـــف الأديـــب في مسكـــن كئيـــب كالضريـــــح.. مسكـــــن مخـــرب، وسقـــف محطـــم، وأبـــواب مفككـــــة، وأثـــــاث رث مهلهـــل.. وفوجئـــت بواقـــع أطفالـــــه الأشقيـــــاء، وزوجتـــــه الـــتي تجهـــل لـــون الهنـــــاء، ولا تعـــــرف ســـــوى الكـــــد والبـــذل بيـــن: كنـــس، وغســـل، وطبـــخ (غـــداء) أو عشـــاء..

فبـــدا لي أنهـــم دفنـــوا وهـــم أحيـــاء.. وقبـــروا في ذلـــك الضريـــح؛ الـــذي قـــال صديـــــقي أنـــــه منـــــزل مريـــــح.. ورضي ببعـــده وانعزالـــه.. هروبـــاً مـــــن هـــــول المدينـــــة؛ الـــتي زعـــم أن فيهـــا بـــؤر لعينـــــة.. لـــــذا فقـــــد اختـــــار الهـــدوء والسكينـــة.. عـــلى الفخفخـــــة الزائفـــــة المشينـــــة.. فلـــقي حســـب تقديـــري في اختيـــاره الخيبـــة والغبينـــة..

كـــان صديـــقي قـــد دعـــاني إلى وجبـــة (غـــداء) في داره المتـــواجـــدة؛ في ضاحيـــة مـــن ضـــواحي المدينـــة.. حـــــدث

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هـذا عندمـا التقينـا ـ صدفـة ـ فـي إحـدى المقـاهي بوسـط المدينـة.. ولمـا كنـت في زيـارة عابـرة لمدينـة الجزائـر؛ فقـد عـرض عـلي زيـارة لـداره؛ بقصـد تنـاول (الغـداء)؛ لأنـه يعلـم بأنـني غريـب الديـار؛ وليـس أمـامي إلا المطاعـم، أو المقـاهي للغـذاء والراحـة.. فأحـب بذلـك تمكيـني، وتمكيـن نفسـه فرصـة للهـروب مـن مشقـة الجلـوس في تلـك المقـاهي؛ إذ فضـل أن يجنبنـا هولهـا، ويريحنـا مـن ضجيـج الطرقـات؛ وذلـك بالاستفـادة مـن لحظـات هادئـة؛ نتحـدث فيهـا عـن أحوالنـا، وهمـوم وطننـا، وقضايـا تخصنـا، وتخـص الثقافـة والمثقفيـن عندنـا..

لـذا فقـد أغـراني بتلـك الجلسـة الهادئـة المريحـة؛ بعيـداً عـن المضايقـات والمثبطـات.. لأن جلسـات المقـاهي، والأكـل في المطاعـم العامـة ليسـت مـن الأمـور المستحبـة المريحـة، ولا هي مـن الأفعـال المفيـدة.. إذ لا يمكـن فيهمـا التمتـع بقـدر معقـول مـن الهنـاء، أو التنعـم بلحظـة مقبولـة مـن الراحـة؛ كمـا أن الحديـث فيهمـا بهـدوء وحريـة غيـر ممكـن أبـداً.. وعليـه فقـد قبلـت دعوتـه الكريمـة؛ ونهضـت معـه نحـو موقـف الحافلـة؛ الـتي أقلتنـا ـ بعـد جهـد جهيـد ـ إلى الضاحيـة؛ الـتي يسكـن فيهـا صديـقي (نافـع)..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولمـــا وصلـــت بنـــا الحافلـــة إلـــى تلـــك الضاحيـــة؛ نزلنـــا؛ واتجهنـــا صـــوب المنـــزل.. وإذا بي اصطـــدم بواقـــع غيـــر الـــذي تخيلتـــه؛ إذ كانـــت دار (نافـــع) غارقـــة فـــي محيـــط يســـوده التلـــوث البيـــئي.. لا طرقـــات مهيـــأة، ولا سكنـــات متناسقـــة، ولا مرافـــق صالحـــة، ولا مستلزمـــات حياتيـــة مقبولـــة.. فكـــل مـــا في ذلـــك المحيـــط عبـــارة عـــن فـــوضى في فـــوضى..

أمـــا دار صديـــقي (نافـــع) فكانـــت أشـــد هرجـــاً ومرجـــاً مـــن المقـــهى، وأكثـــر ضجيجـــاً وحركـــة مـــن شـــوارع المدينـــة.. مـــن ذلـــك: أصـــوات بكـــاء الأطفـــال وعويلهـــم، وصيـــاح الأم وصراخهـــا، وصخـــب المذيـــاع وضجيجـــه، وطنيـــن الصحـــون ورنينهـــا، ونشيـــش القـــدر البخـــاري وصفيـــره، وصريـــر الأبـــواب وهديرهـــا.. فسألـــت نفـــسي عندئـــذ:

◄ ألا يمنـــع كـــل هـــذا الضجيـــج صديـــقي مـــن التفكيـــر والإبـــداع..؟! إن العمـــل في جـــو كهـــذا مستحيـــل.. كيـــف يستطيـــع الكتابـــة أو القـــراءة أو التفكيـــر بتركيـــز وصفـــاء ذهـــن..؟!

ولمـــا دخلنـــا المنـــزل؛ جلسنـــا في غرفـــة لهـــا نافـــذة صغيـــرة؛ مطلـــة عـــلى ذلـــك الـــدرب التـــرابي؛ الـــذي يسميـــه (نافـــع) بالشـــارع.. وبعـــد عبـــارات المجاملـــة؛ الـــتي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فرضتـــهـــا سنـــن اللياقـــة.. أخذنـــا في استعـــــادة ذكرياتنـــــا؛ أيـــام الطفولـــة والصبـــا؛ في القريـــة الـــــتي نشأنـــــا بهـــــا.. كـــان الحديـــث ينقطـــع بيـــن الحيـــن والآخـــر؛ لـــكي يتمكـــــن (نافـــع) مـــن الذهـــاب إلى الغرفـــة المجـــاورة؛ ليلقـــــن الأولاد درســـاً في الأدب وحســـن الخلـــق، أو يلتحـــق بزوجتـــــه فـــي المطبـــخ؛ لتلبيـــة بعـــض طلباتهـــا..

والـــذي يبعـــث عـــلى الغرابـــة هنـــا؛ أنـــه كـــان حيـــــن يعـــود للمجلـــس؛ يشـــرع في مواصلـــة مـــــا انقطـــــع مـــــن حديـــث؛ دون أن تغيـــب عنـــه نقطـــــة وقوفـــــه، أو ينـــــسى شيئـــاً مـــن سيـــاق مـــا كـــــان يذكـــــره.. لقـــــد أدهشـــــني صديـــقي بقـــوة احتمالـــه، وبـــرودة أعصابـــه.. فلـــم أتمكـــــن مـــن قمـــع فضـــولي؛ فبادرتـــه بالســـؤال:

◄ كيـــف تعمـــل يـــا عزيـــزي في جـــــو كهـــــذا..؟ كيـــــف تستطيـــع الكتابـــة..؟ وكيـــف تمتلـــك القـــدرة عـــلى التفكيـــــر السديـــد..؟

◄ لمـــاذا تســـأل هـــذا الســـؤال..؟! فأنـــــا أعمـــــل بشكـــــل عـــادي..

◄ لا تؤاخـــذني.. فأنـــت تعـــرف مـــدى حـــبي لـــك.. وتعلـــم أيضـــاً صراحـــتي.. فأنـــت رفيـــــق طفولـــــتي.. وتعرفـــــني جيـــداً؛ وتعـــرف أنـــني لا أستطيـــع الصمـــــت عـــــن أمـــــر يشغلـــني..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

◄ لقد أشعلت فتيل الشكوك في قلبي.. ماذا تعني بهذه الأقوال الغريبة..؟!

◄ بصراحة.. عندما قدمت إلى الجزائر منذ مدة؛ أي قبل عدة سنوات.. ربما كانت أربع سنوات.. زرتك في منزل هائل؛ كنت تسكن فيه وسط المدينة.. فما الذي أصابك؛ حتى أصبحت في موضع كهذا..؟!

◄ آ..آ..أ..ه.. أهذا هو مبعث استغرابك، وتساؤلك إذن..؟ لا تتسرع في الحكم يا صديقي.. فالمنزل الذي كنت أسكنه سابقاً لم يكن لي؛ لقد عرضه عليّ أحد أقاربي؛ كي أحرسه، وأستفيد منه بعض الوقت؛ ريثما يعود من سفر خارج البلاد؛ إذ حصل على منحة دراسية بفرنسا؛ فلم يجد خيراً مني لحراسة المنزل.. ومن جهتي فقد وجدت فرصة مناسبة لإيواء أبنائي..

◄ عجيب..!! هذا الخبر أغرب من الأول..!! إذن.. أين كنت تسكن قبل هذا..؟! فأنا أعرف أنك تركت القرية منذ عشر سنين تقريباً.. فأين قضيت بقية الأعوام..؟

◄ أنت تعلم أنني كنت أشتغل في التعليم سابقاً.. وبحكم عملي حصلت على سكن وظيفي؛ ولما انتقلت إلى عملي الأخير؛ أجبرت على ترك ذلك

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المنـــزل.. ولـــو لـــم أجـــد أمـــامي قريـــبي الـــــذي ذكـــــرت؛ لتشـــردت مـــع أولادي في الشـــوارع..

◄ لـــم كـــل هـــذه المبالغـــــة والتمـــــادي فـــي التعنـــــت..؟! أتتشـــرد في شـــوارع هـــذه المدينـــة؛ وأنـــت صاحـــب ملـــــك، ومنـــزل، وبستـــان في قريتـــك..؟ فمـــا الـــذي يجبـــرك عـــــلى هـــذا الأمـــر..؟

◄ إييـــه.. فـــــات الحـــــال.. العـــــودة أصبحـــــت ثقيلـــــة وصعبـــة.. فأكثـــر أولادي.. بـــــل كلهـــــم ولـــــدوا هنـــــا.. وزوجـــتي تعـــودت عـــلى حيـــاة المدينـــة.. وأنـــــا غـــــدوت كالسمكـــة الـــتي تحـــرص عـــلى البقـــاء في المـــــاء؛ الـــــذي تعـــودت عليـــه.. إن التفكيـــر فـــي العـــــودة ــ الآن ــ شبـــــه مستحيـــل..

◄ أرأيـــت الآن..؟ أتتذكـــر نصيحتـــي إليـــك منـــــذ مـــــدة..؟ أتذكـــر الحمـــاس الـــذي انتابـــك؛ وأنـــــت تحضـــــر نفســـــك للهجـــرة نحـــو العاصمـــــة.. فمـــا الـــــذي استفدتـــــه مـــــن العاصمـــة..؟ تركـــت ملكـــك، ومنزلـــك دون رعايـــة؛ وأتيـــت إلى مدينـــة أضاعتـــك، وأنســـت أولادك جذورهـــم..

◄ إييـــه.. كانـــت نـــــزوة شبـــــاب.. إن بريـــــق المدينـــــة سحـــرني آنـــذاك.. لـــم أقـــدر الأمـــور حـــق قدرهـــا..

في هـــذه اللحظـــة وقـــف أحـــد أبنائـــــه فـــي مدخـــــل الغرفـــة؛ مشيـــراً إليـــه بأنـــه مطلـــوب في الجهـــة الأخـــرى..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فنهض في الحال، وتوجه حيث أشار ولده.. وبقيت وحدي أفكر في حال صديقي (نافع)، وأتأمل في وضعه.. لقد شعرت بالشفقة عليه.. وأثر في نفسي قبوله بهذه الحياة، والاستسلام للواقع المؤلم.. مع أنه كان ـ في السابق ـ يفور بروح النضال، ويفيض طموحاً وأملاً.. عندها عدت إلى نفسي أسائلها..

◄ كيف السبيل إلى إخراج صديقي (نافع) المثقف، الأديب من هذه الحياة المزرية..؟ كيف يمكنه ترقية حاله، وتحسين وضعه الاجتماعي..؟ كيف يحصل على فرصة جديدة؛ تمكنه من تحقيق حياة كريمة له ولأسرته..؟

ثم انتقل بي خيالي إلى استدعاء صور مثالية؛ تشخص ما يمكن أن يكون عليه هذا الصديق المثقف..

◄ فلو تحقق ـ بالفعل ـ ما كان يصبو إليه؛ ولو وجدت حلول مقبولة لمشاكله الاجتماعية والمادية.. ماذا ستكون النتيجة..؟ وما الذي سيقدمه للوطن..؟ فالجواب ـ هنا ـ سيكون ببساطة: أن صديقي، وكل مثقف مثله سيتضاعف إنتاجهم الفكري، ويتزايد عملهم الأدبي والفني جودة وحسناً. كما ستصبح

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أفكارهم أكثر عمقاً وجدوى.. وهذا ـ طبعاً ـ سيعود بالخير العميم على وطننا، وعلى أبناء شعبنا؛ لأن ما يفيد المثقف ينعكس ـ حتماً ـ على الوسط الثقافي؛ ومنه إلى الشعب كله..

وهنا عاد (نافع) إلى مجلسه؛ وقال مواصلاً حديثه الأول:

◄ كنت في صباي أتصور العاصمة جنة الله في الأرض؛ لأن بريقها كان يخفي عيوبها ومساوئها.. وبمرور الأشهر والسنين؛ بدأت أكتشف ما كانت الأضواء الزائفة تخفيه..

◄ ولكن كيف سكنت هنا..؟!

◄ تمكنت من شراء قطعة أرض صغيرة في هذا المكان ـ بفضل ريع بستاني في القرية ـ وبنيت فيه هذه الدار؛ كما ترى..

◄ ولكن لماذا اخترت هذا المحيط الفوضوي..؟!

◄ المسألة تتعلق بإمكاناتي المادية.. هذا ما سمحت به إمكاناتي..

◄ إذن هذا هو السبب في اختفائك بهذه المنطقة المعزولة..؟ وعلى هذا انقطعت أخبارك عنا..؟

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

◄ أبـداً.. فأنـا أنـزل إلى وسـط المدينـة كـل يـوم تقريبـاً..

◄ لقـد سألـت عنـك الأصدقـاء وأهـل القريـة مـراراً؛ فاجمعـوا أنـك عزلـت نفسـك عنهـم، واختفيـت عـن أعينهـم.. وقالـوا أنـك تتجنـب اللقـاء معهـم، أو الاحتكـاك بهـم..

◄ غيـر صحيـح؛ مـا سمعتـه.. كنـت منشغـلاً فـي عمـلي، وفي بنـاء المنـزل.. لقـد أخـذا وقـتي كلـه.. هـل تعلـم أنـني كنـت أعمـل مـع البنـاء بيـدي هاتيـن..؟ نعـم لقـد سمعـت بعـض الإشاعـات الـتي ينشرهـا المغرضـون في القريـة.. مثـل قولهـم أنـني بخيـل وشحيـح، وأنـني لا أحـب الزائريـن لـداري.. ولا أرغـب في استضافـة أحـد.. يعلـم اللـه؛ أن كـل تلـك التهـم باطلـة وظالمـة..

وهنـا وصلتـه إشـارة ثانيـة مـن الناحيـة الأخـرى؛ فقطـع الحديـث، وانسـل خارجـاً مـن الغرفـة.. وبـدأت أنـا ــ كالعـادة ــ أفكـر في صديـقي، ومـا كانـت تـروج حولـه ــ في القريـة ــ مـن مزاعـم، وأخبـار ملفقـة..

◄ إذن.. فمـا زعمـوه مـن قطـع الصلـة بأهلـه غيـر صحيـح.. ومـا نسبـوا إليـه مـن بخـل وشـح تهمـة باطلـة، وتجـني في حقـه.. نعـم.. لـم لا.. لقـد كـان الرجـل منشغـلاً في بنـاء مسكنـه.. وليـس لـه وقـت

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يضيعه مع أصدقائه، أو الذين يعرفهم في القيل والقال..

ولم يطل غياب (نافع)؛ إذ أحضر الطعام بين يديه؛ وشرع في وضع الصحون والأواني على المائدة. ولما أكمل عمله جلس وقال لي:

◄ هيا باسم الله.. لنواصل الحديث أثناء الطعام.. فقد توقفنا ــ حسب ظني ــ عند قولي أنهم ظلموني بأكاذيبهم.. فالله هو الكفيل بهم؛ وأرجو أن يسامحهم..

◄ لا تهتم بهذا.. فلن يصدقهم أحد.. ها قد برهنت على كذبهم.. وما دعوتك لي سوى دليل قاطع على كذبهم، وزور أقوالهم..

◄ أنت شرفتني في داري المتواضعة.. لا تؤاخذني على هذا الحال المايل.. فما تراه من سوء حال؛ سببه الواقع المر الذي أمر به.. بل تمر به بلدنا كلها..

◄ أبداً كيف تقول هذا.. تأكد أنني ممنون جداً؛ وشاكر لك على هذه الدعوة الكريمة..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

◄ تأكد أن حبي لك فوق ما تتصوره؛ فأنت رفيق طفولتي، وصديق عمري.. وأنت فوق كل اعتبار.. اعلم أنك الصديق الوحيد الذي دخل داري؛ بعد أن كمل البناء..

◄ أوه.. كيف تقول ذلك..؟! إنك بهذا تؤكد اعتزالك عن الناس..

◄ لا.. أبداً.. كل ما في الأمر؛ أنني أشعر بالحرج الشديد كلما فكرت في دعوة أحد الأصدقاء. لهذا كنت أتردد في ذلك.. ها قد رأيت الحال.. فالمظهر لا يشرف كثيراً..

◄ ولكنك دعوتني.. هل ندمت على هذه الدعوة..؟ أم أن الزوجة وبختك..؟

◄ لا والله.. فأنت غير الآخرين من أصدقائي.. فأنت أولاً ابن قريتي.. وعرفنا معاً قسوة الحياة في الريف.. وأعرف جيداً أنك لا تعطي أهمية للمظاهر البراقة؛ كما أعلم عنك تقشفك، واستخفافك بالقشور.. هذا ما أعرفه عنك في السابق.. فهل تغيرت الآن..؟

◄ أبداً.. لن تغيرني الأمور التافهة.. ولن أتغير إلا فيما له علاقة بدرجات العلم.. وما يرتبط بكسب مزيد من الآداب والقيم الفاضلة، أو بالبعد عن السخافات؛ ولا يغيرني إلا السعي والتطلع لجوهر

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأشيـــاء.. وكمـــا تعرفـــني فأنـــا ترعرعـــت في بيئـــة ريفيـــة بسيطـــة؛ وأعشـــق البساطـــة إلى حـــد بعيـــد.. المهـــم أنـــت.. أرجـــو ألا تعقـــد نفســـك بهـــذه الأفكـــار الغريبـــة.. وأن تنفتـــح عـــلى أصدقائـــك؛ كمـــا عهدتـــك في السابـــق.. فمـــاذا الـــذي يحرجـــك في حياتـــك..؟ ومـــاذا تغيـــر فيـــك..؟! ومـــا العيـــب في سكنـــاك..؟ إنهـــا ليســـت شـــاذة، ولا تختلـــف عـــن آلاف المنـــازل الـــتي يمتلكهـــا بقيـــة أصدقائـــك.. ولا يغيـــب عنـــك أنـــك تسكـــن في منـــزل ملكـــك؛ بنيتـــه بمالـــك وجهـــدك.. إذن.. ألا يكفيـــك هـــذا فخـــراً..؟ قـــد يكـــون كثيـــرون مـــن أصدقائـــك يعيشـــون في ظـــروف أســـوأ مـــن ظروفـــك.. فلِـــمَ تقفـــل بـــاب دارك في وجوههـــم..؟!

◄ يعلـــم اللـــه أن ذلـــك فـــوق طاقـــتي.. وهـــذا السلـــوك ضـــد مبـــادئي ورغبـــاتي.. ولكـــن مـــا باليـــد حيلـــة.. هـــل تذكـــر قـــول الشاعـــر:

ليـــس إغـــلاقي لبـــابي أن لي
فيـــه مـــا أخـــشى عليـــه السرقـــا
إنمـــا أغلقتـــه كي لا يـــرى
ســـوء حـــالي من يمـــر الطرقـــا
منـــزل أوطنـــه الفقـــر فلـــو
يدخـــل الســـارق فيـــه سرقـــا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وسارع صديقي إلى الجهة الأخرى من الدار لإحضار ما تبقى من طعام؛ فوجدتها فرصة لمواصلة التحدث في داخلي..

◄ لم أشك لحظة في صدق (نافع).. فما يعانيه من ضيق حال، وما يشعر به من غبن؛ ليس غريباً؛ عن الوسط الثقافي الجزائري.. فالعلة التي يشكو منها صديقي؛ يتألم ــ أيضاً ــ منها كثيرون؛ ممن ابتلوا بمحنة الثقافة ومشاقها.. لذا فلا غرابة ــ إذن ــ إذا ما أغلق المثقفون أبواب دورهم في وجه زملائهم وأصدقائهم.. لقد كنت في السابق ألومهم؛ وأرجع السبب ــ خطأ ــ إلى بخلهم وانطوائهم.. ولكن الآن زال هذا الاعتقاد التعسفي من ذهني.. لقد عرفت الآن التشخيص الصحيح للعلة التي تلازم جل المثقفين ببلادنا.. وبقي العلاج؛ الذي لن يكون سهلاً؛ لأنه ليس في متناول أيدي المثقفين..

وعندما عاد صديقي لمجلسنا قلت له:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

◄ لا تيأس، ولا تبتئس يا أخي.. إن المثقفين كلهم يعيشون ــ مثلك ــ في الظروف نفسها تقريباً..

◄ من قال ذلك..؟! هذا غير صحيح..

◄ أوه.. ألا ترى حال زملائك المزري..؟ ألا تشهد ما يعانيه المثقفون من أوضاع يرثى لها.. ألا يصنف أكثرهم ضمن الطبقة الفقيرة ببلادنا..؟

◄ نعم هذا صحيح؛ إذا تعلق الأمر بالمعربين منهم.. هل رأيت متفرنساً يعيش في الظروف التي أعيش فيها..؟

◄ أ..أ..أ.. لم لا ..؟ ربما كان منهم من هو أفقر منك..

◄ أبداً.. لأن المتفرنس تتوفر له أسباب العيش والكسب أكثر من المعرب..

◄ اسمح لي يا أخي.. هذه عقدة نفسية، وأقوال يرددها كثير من المعربين؛ لكي يخفوا عجزهم وتخلفهم..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

◄ أ..أ..أ.. وه.. مـا هـذا القـول يـا أخي..؟!! هـل أصبـت بلوثـة في عقلـك.. مـا هـذه الأقـوال التغريبيـة؛ الـتي طالمـا رددهـا أعـداء العربيـة، ودعـاة الفرنسـة والتغريـب..؟!

◄ مهـلاً يـا أخـي.. ناقشـني بعقلـك، ولا تناقشـني بأعصابـك، وعاطفتـك..

◄ هكـذا إذن..! لا بـأس.. فلنبـدأ بأيـام الاستقـلال الأولى.. فـفي تلـك الفتـرة كـان الجزائريـون كلهـم موحديـن.. نعـم.. كانـوا موحديـن فـي مظاهـر الفقـر، والجهـل، والتهميـش.. ومـع مـرور الأيـام بـدأت إفـرازات اجتماعيـة جديـدة تظهـر في الساحـة الجزائريـة.. بـدأت تظهـر فئـة مؤثـرة مـن المتعلميـن بالفرنسيـة.. فمـن أيـن أتـت هـذه الفئـة..؟ هـل سقطـت مـن السمـاء..؟ لا.. إنهـا تكونـت وأعـدت بمخطـط نفذتـه ـ للأسـف ـ السلطـة في الجزائـر.. نفذتـه بعـد أن قسمـت أبنـاء الوطـن، وشَطَرَتْهُـم إلى فئتيـن متعاديتيـن.. فئـة المعربيـن، وفئـة المتفرنسيـن.. وطبعـاً فالسلطـة اختـارت المتفرنسيـن، ولفظـت المعربيـن؛ الذيـن تعرضـوا ظلمـاً للتهميـش والإقصـاء.. وبذلـك نشـأت في الوطـن طبقـة جديـدة مرفهـة ومدللـة؛ وهي الـتي يحلـو لبعضهـم بتسميتهـا ـ سابقـاً ـ بالطليعـة؛ والآن بالنخبـة؛ ـ أو كمـا يفضـل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

غيرهم ــ تسميتها باسم (انتلجانسيا).. كل ذلك ــ طبعاً ــ تم على حساب الفئة الأخرى المكتسحة؛ وهي فئة المعربين.. ها قد أعطيتك ــ بعقلانية، وببرودة أعصاب ــ صورة شاملة عن أسباب تقسيم أبناء الجزائر إلى معربين ومتفرنسين..

◄ ولكن لماذا تلوم المتفرنسين في هذا الأمر؛ ولا تلوم المعربين على تراخيهم، ورفضهم لتعلم الفرنسية..؟

◄ أولاً أنا لا ألوم المتفرنسين؛ بل ألوم السلطة الممثلة بإدارتها.. فهي التي تسببت في تقسيم أبناء الجزائر إلى متفرنسين ومعربين.. مع أن هذا التقسيم لم يكن له وجود أصلاً أيام الاستعمار.. وكل ما ورثناه جميعاً ــ عن فرنسا ــ هو الفقر والجهل للجميع؛ ما عدا جماعة قليلة جداً؛ من أبناء المتعاملين مع الأوساط الاستعمارية.. وثانياً فما حيلة ذلك التلميذ الريفي الفقير المعدم؛ إذا وجد نفسه ــ عنوة وبدون أخذ رأيه أو رأي أهله الجاهلين ــ ضمن فرع يسمى (الفرع المعرب)؛ ذلك الفرع الذي خصص للكادحين والمهمشين سلفاً..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

◄ إنك ــ هنا ــ تنفي كل مسئولية عن الذين اختاروا العربية طوعاً..

◄ كان الواجب على ولاة الأمور ألاّ يتركوا مجالاً لفكرة الاختيار أصلاً.. كان عليهم أن يفرضوا نوعاً واحداً من التعليم على التلاميذ الجزائريين كلهم.. بدلاً من تقسيمهم إلى فئتين متناحرتين.. ولكن ما حيلتنا؛ إذا كان ذلك الأمر تم نتيجة خطة خبيثة..؟!

◄ خطة خبيثة..؟! كيف ذلك..؟

◄ عندما خرج الفرنسيون من أرض الجزائر؛ كانوا يأملون في العودة؛ ولكن في ثوب جديد.. لا علاقة له باحتلال الأرض.. بل اهتموا باحتلال العقول، والنفوس.. وهذا هو الذي يسميه بعضهم بالاستعمار الجديد.. فباحتلال العقول يمكن للمستعمر أن يأخذ كل شيء يطمع فيه؛ دون اعتراض؛ ودون دفع فاتورة ثقيلة في الأرواح والاقتصاد.. وباحتلال النفوس يتمكن المستعمر من إخضاعها، وامتلاكها، واستعبادها طوعاً..

◄ إذن.. فأنت تُحَمِّل وزر ما نحن فيه الإدارة الجزائرية..؟

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

◄ نعم.. ثم نعم.. لأن هذه الإدارة هي سبب كل المصائب؛ التي أصابت الجزائر.. خاصة الإدارة التي كانت عاملة بعد الاستقلال مباشرة؛ لأن الحقيقة تقتضي التمييز بين الإدارة القديمة والإدارة الحديثة..

◄ كيف هذا..؟ فأنا لا أفهمك..

◄ إدارة ما بعد الاستقلال لم تكن بريئة أبداً.. كانت تنفذ مخططاً أعد خارج الوطن.. أما الإدارة الحالية فهي ــ حتى وإن كانت ــ ربيبة ووليدة للأولى.. فإنها مع ذلك ــ وهذا من حسن الحظ ــ قد طعمت بعناصر وطنية مخلصة؛ وهذه العناصر هي التي تناضل ــ الآن ــ من أجل إفشال المخطط الأجنبي.. إذ أن دخول عناصر معربة إلى الإدارة أفسد أهم فصل في الخطة المعادية للوطن..

◄ عدنا إلى التعريب من جديد.. لماذا تربط كل الذي ترضى عنه بالتعريب وبالمعربين.. ألا يكمن الخير والصلاح إلا في العربية والمعربين..؟ ألم يقابلك متفرنسون أكثر وطنية وصلاح من المعربين..؟

◄ بلى.. ثمة متفرنسون مخلصون.. هذا لا أنكره.. ولكن المايسترو الذي يدير الفرقة؛ يستغل التناقضات؛ لكي يفتت فئات الشعب.. ولما كان الموضوع موضوع خبز، ومناصب عمل، ووظائف إدارية،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وسلطات؛ فقد اشتعل الصراع بين الطرفين.. وبالطبع مهدت السبل أمام المتفرنسين، وأقصي المعربون وهمشوا.. وهذا ما يفسر هيمنة الفرنسية فترة طويلة على الإدارة الجزائرية..

◄ ولكن يوجد في الإدارة معربون كثيرون.. بل حققت الإدارة الجزائرية خطوات هامة في تعريب محيطها ووثائقها..

◄ هذا صحيح.. ولكن تم هذا منذ فترة قريبة جداً.. وقد اضطرت السلطة أخيراً إلى هذا الإجراء؛ نتيجة لمجهودات الَّذين وقفوا ضد المخطط الأجنبي.. ذلك المخطط الذي كان يعرقل كل خطوة تخطوها البلاد نحو التعريب.. لقد كان المستفيدون من الفرنسية يضعون كل الحواجز الممكنة أمام التعريب.. وأذكر الآن حكاية طريفة وقعت لزميل لي؛ منذ مدة؛ أي قبل تعريب الوثائق الإدارية..

◄ أحكي يا أخي.. هات ما عندك..

◄ صدر في فترة مبكرة بالجزائر أمر رئاسي؛ يلزم الإدارة بعدم رفض أي وثيقة تكتب بالعربية.. نعم عدم رفض.. وهذا يؤكد أن العربية كانت مرفوضة في وطنها.. فانتهز زميل لي كان لمتحمساً هذه الفرصة؛ وأصر على المبادرة بكتابة الصك البريدي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بالعربيـــة؛ وبالفعـــل كتبـــه بتلـــك اللغـــة المهمشـــة.. وذهـــب إلى مركـــز البريـــد الـــذي اعتـــاد صـــرف دراهمـــــه منـــــه.. وقـــدم الصـــك المعـــرب إلى موظـــف البريـــد؛ فلمـــــا تأمـــــل ذلـــك الموظـــف مـــا في الصـــك مـــن كتابـــــة؛ وخربشـــــة.. ذهـــل مـــن الحيـــرة والاندهـــاش.. وقـــال لزميـــلي:

◄ هـــل أنـــت شـــرقي (يَالْخُـــو وَلاَّ جَزَايْـــرِي)..

◄ لا أنـــا جزائـــري.. لمـــاذا هـــذا الســـؤال..؟

◄ (كِي كُنْـــتْ جَزَايْـــرِي وَعْـــلاَهْ كْتَبْـــتْ الشِّيـــكْ هَاكْـــدَا)..؟

◄ لأنـــني جزائـــري كتبتـــه هكـــذا.. ولـــو كنـــــت فرنسيـــــاً لكتبتـــه بالفرنسيـــة..

◄ (اسْمَـــعْ يَالْخُـــو.. مَانَقْـــدَرْشْ نَعْطِيـــكْ الصُّـــوَالْـــدَا.. اكْتُـــبْ الشِّيـــكْ بَالْفْرَانْسَوِيَّـــهْ وَلاَّ.. سَامَحْنَـــا)..

◄ وأنـــا أقـــول لـــك هـــذه أمـــوالي الـــتي أطلبهـــــا؛ ومـــــا عليـــك إلا صرفهـــا لي.. فهـــذا مـــن حـــقي.. أمـــا موضـــــوع اللغـــة فأنـــا في الجزائـــر، ودستورهـــا ينـــــص أن العربيـــــة هـــي اللغـــة الرسميـــة؛ وليســـــت الفرنسيـــــة كمـــــا تحـــــب أنـــت.. وثمـــة أمـــر رئـــاسي يجبـــرك عـــلى عـــدم رفـــــض العربيـــة..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هنـــا أحـــس ذلـــك الموظـــف أن الجـــدال سيطـــول بيـــن زميـــلي وبينـــه؛ كمـــا علـــم أنـــه أمـــام رجـــل عنيـــد؛ وقـــد يتطـــور الموضـــوع إلى مـــا لا يرغـــب فيـــه؛ لـــذا فقـــد نهـــض مـــن فـــوره؛ واتجـــه إلى رجـــل في مكتـــب خلـــفي؛ وظـــل معـــه مـــدة؛ ثـــم قدمـــا معـــاً.. وتقـــدم ذلـــك الرجـــل مـــن زميـــلي؛ وقـــال بهـــدوء وبـــرودة أعصـــاب:

◄ سَامَحْـــنِي يَـــاسِّي مُحَمَّـــدْ.. أنَـــا المُفَتَّـــشْ.. وَاشْ كَايَـــنْ..؟

◄ قدمـــت صكـــاً بالعربيـــة إلى الموظـــف؛ فرفـــض صرفـــه؛ بحجـــة أنـــه مكتـــوب بالعربيـــة؛ الـــتي لا يعرفهـــا..

◄ أ..أ..ه لاَ بَـــاسْ العَرْبِيَّـــهْ لُغَتْنَـــا.. أولاَزَمْ نَعَمْلُـــوا بِيهَـــا.. نْصَرْفُـــوا لَـــكْ صْـــوَارْدَاكْ.. هَـــذَا حَقَّـــكْ.. وَالعَرْبِيَّـــهْ مَـــا هِيـــشْ مَمْنُوعَـــهْ.. بِاسْـــمِ اللـــَّهْ.. تَسْمَـــحْ لِي تَعْطِيـــنِي (الكَارْتْ دِيدَانْتِيـــتِي)..

◄ تفضـــل.. هـــذه هي بطاقـــة تعريـــفي..

ولمـــا استلـــم بطاقـــة تعريـــف زميـــلي؛ تظاهـــر بأنـــه يتأملهـــا باستغـــراب واستهجـــان.. ثـــم التفـــت إليـــه وقـــال:

◄ وَاشْ هَـــاذِي..؟

◄ بطاقـــة التعريـــف..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

◄ لَكِـنْ.. هِيَ مَكْتُوبَـهْ بَالفْرَانْسَوِيَّـهْ؛ وَالشِّيـكْ مَكْتُـوبْ بَالْعَرْبِيَّـهْ.. أُوكِيـفْ نَعْـرَفْ نُوزَنْ بَيْنَاتْهُـمْ.. اسْمَـعْ يَـا سِّـي مُحَمَّـدْ.. كَـانْ تْحَـبْ نَعْطِيـكْ الصُّـوَارْدَا؛ لاَزَمْ إِيْكُونُـو فِـي زَوْجْ بْلُغَـهْ وَحْـدَهْ.. مَـا يْهَمَّـشْ إِيْكُونُـو بِالْعَرْبِيَّـهْ وَلاَّ بِالْفْرَانْسَوِيَّـهْ.. بُصَّـحْ لاَزَمْ إِيْكُونُـو فِي زَوْجْ بْلُغَـهْ وَحْـدَهْ؛ حَـتَّى نَعْـرَفْ نَخْـدَمْ..

فأسقـط في يـد زميـلي، وأصيـب بالإحبـاط.. وظـل مـدة صامتـاً؛ دون جـواب.. لقـد أفحمـه المفتـش بخبثـه وحيلتـه.. فلـم يجـد أمامـه متسعـاً؛ سـوى بـاب الخـروج؛ حيـث انسحـب يجـر معـه أذيـال الخيبـة والتهميـش..

***

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المحتـــوى

ـ تقـديـم :................................. 4
ـ الكابـــــوس:............................. 6
ـ الصــــــدع:.............................. 36
ـ البـــــريء:.............................. 53
ـ لــوث مــن كــلام:......................... 68
ـ التهميــــــش:............................. 79
ـ المحتـــــوى:........................... 101

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com